بَيْتاً أَوْ بَيْتَيْنِ ، واسْتَقَلْتُ مِنْ هَذا المَقَامِ الَّذِي فِيهِ يَحَارُ الْفَهْمُ ، وَيَفْرُطُ الْوَهْمُ ، وَيُسْبَرُ غَوْرُ الْعَقْلِ ، وَتَبِينُ قِيمَةُ الْمَرْءِ فِي الْفَضْلِ ، وَيُضْطَرُّ صَاحِبُهُ إِلى أَن يَكُونَ كَحَاطِبِ لَيْلٍ ، أَوْ جَالِبِ رَجْلٍ وَخَيْلٍ ، وَقَلَّمَا سَلِمَ مِكْثَارٌ ، أَوْ أُقِيلَ لَهُ عِثَارٌ .

* * *

[السبب فى إنشاء الحريرىّ للمقامات]

غُنْم : غنيمة . وحكى الفنجديهى فى شرحه للمقامات : أن الذى أشار عليه بها هو شرف الدين أنوشروان بن خالد وزير الخليفة ، أمره بإنشاء المقامات وحكم عليه بها . وقيل : أمره بها صاحب البصرة ووالِيها . وقال : سمعتُ الشيخ الثقة أبا بكر عبد الله بن محمد بن أحمد بن النَّقُور البزَّار ببغداد يقول : سمعت الشيخ الرئيس أبا محمد الحريرى يقول : أبو زيد السَّروجىّ كان شحّاذاً بليغاً ، ومكدياً فصيحاً ، ورد علينا البصرة ، فوقف يوماً فى مسجد بنى حَرام يتكلّم ، ويسأل شيئاً ، وكان بعضُ الولاة حاضراً ، والمسجد غاصٌّ بالفضلاء ، فأعجبهم بفصاحَته ، وحسن صناعته وملاحَته ، وذكر أسر الروم ابنتَه ، كما ذكرنا فى المقامة الحرامية وهى الثامنة والأربعون ، قال : فاجتمع عندى عشيّة ذلك اليوم جماعة من معارف فضلاء البصرة وعلمائها ، فحكيتُ لهم ما شاهدتُ من ذلك السائل ، وسمعت من لطافة عبارته فى تحصيل مُرَادِه ، وطَرافة إشارته فى تسهيل إيراده ؛ فحكى كلّ واحد من جلسائى أنه شاهدَ مِن هذا السائل فى مسجده مثل ما شاهدت ، وأنه سمع منه فى معنى آخر فصلاً أحسن مما سمعت . وكان يغير فى كلّ مسجد زِيَّهُ وشكله ، ويظهر فى فُنون احتياله ، فعجبوا من جريانه فى ميدانه ، وافتتانه فى إحسانه ؛ قال الحريرىّ : فابتدأت فى إنشاء المقامة الحرامية تلك الليلة ، حاذياً حَذْوَهُ ، فلما فرغتُ منها أقرأتُها جماعةً من الأعيان ، فاستحسنوها غاية الاستحسان ،

وأنهوا ذلك إلى وزير السلطان ، واقترحوا علىّ أخواتها ، والله المستعان .

وهذا الذى ذكر الفَنْجديهىّ قد حدّثنى بنحوه مَنْ يوثَق به من الطلبة ، بسندٍ يتصل بأبى محمد الحريرىّ ، وأن الحريرىّ وفد مع أهل البصرة بغداد ، فوجدوا بواسط أبا زيد السَّروجىّ[1] ، فقال: يا أهل البصرة ، أنتم تزعمون أنكم لاتُكادون ولا تُخدعون ، وقد والله مشيت على مساجدكم ومحاضركم ، فما تعذّر علىّ فيها موضع لم أجلب منافعَ أهله بضروب من المكر . فلما بلغوا بغداد أخبروا بالقصة وزير السلطان ، فأمر الحريرىّ بجمع المقامات .

لكن الذى ثبت عندنا ، هو ما حدثنى به الشيخ الفقيه أبو بكر بن أزهر أنّ الفقيه الراوية أبا القاسم بن جَهْور ، حدّثه أن الحريرىّ حدّثه أن قصة المقامه الثامنة والأربعين حق ، وأنّ رجلا قام بمسجد بنى حَرَام ، فأظهر التوبة من ذنبه ، وسأل عن الوجه فى كفّارته ، فقام رجل من بين الناس ، فذكر أسر ابنته ، فنظم الحريرىّ القصة وجعلها مقامة ، وأنها أول مقامة أثبتت فى الكتاب. وكان ابن جَهْور يقول : إنّ الذى أشار إليه بها فى قوله : « فأشار مَنْ إشارته حكم » هو المستظهر بالله العباسى ، وكان لهذا المستظهر رغبة فى الطلب ، وحظّ من الأدب ، وعناية بأهل العلم .

وحدّث ابن جهور أنه دخل بغداد فى أيامه وبها ألف رجل وخمسمائة رجل حامل علم ، وكلهم قد أثبت أسماءهم السلطان فى الديوان ، وأجرَى على كلّ واحد من المال بقدر حظّه من العلم . وكان ابن جهور يحدّث أن الحريرىّ ألّف المقامات كلها على الرِّكاب ، وذلك أن المستظهر بالله لما أمره بصنعتها ، أُخْرِج كالحافظ على العمال ، فكان يخرج فى الأبردين يتمشّى فى ضِفتى دجلة والفرات ، ويصقل خاطره بنظر الخضرة والمياه ، فلم ينقض فصل العمل إلا وقد اجتمع له

(١) السروجى ، بفتح السين : منسوبة إلى سروج : بلدة قريبة من حران واسم أبى زيد السروجى المطهر بن سلار اللغوى ، وأحد من اشتغل بالنحو فى البصرة ، ذكره القفطى فى إنباه الرواة ٣ : ٢٧٦ .

مائتا مقامة ، فخلّص منها خمسين وأتلف البواقى ، وصدّر الكتاب ، ورفعه إلى السلطان ، فبلغ عنده أسنى المراتب .

قوله : « فذاكرته بما قيل فيمن ألف بين كلمتين ونظم بيتاً أو بيتين » ، قال أبو عمرو بن العلاء : الإنسان فى فسحة مِنْ عقله ، وفى سلامة من أفواه الناس ، مالم يضع كتاباً أو يقلْ شعراً .

وقال العتابىّ : مَنْ صنع كتابا فقد استشرف للمدح والذم ، فإن أحسن فقد استهدف للحسد والغِيبة ، وإن أساء فقد تعرّض للشتم بكل لسان .

غيره : من صنّف فقد جعل عقله على طَبَق يعرضه على الناس . وقال حسان :

وإنّما الشِّعْرُ عقلُ المرء يَعْرِضُهُ على البريَّة إن كَيْسًا وإنْ حُمُقا[1]

وإنَّ أحسـن بيتٍ أنت قائلُهُ بيتٌ يقال إذا أنشدْتَه صَـدَقَا

واستقلت : طابت الإقالة . المقام : موضع القدمين وأنت قائم . يحار : يتحيّر : يَفْرُط : يسبق . الوهم : الغلط . يُسْبَر غور العقل ، يختبَر قدره ومنتهاه ، وأصله فى الجراحات يُختبَر غَوْرها ، أى بعد قعرها . والمسبار : الحديدة التى يقاس بها مقدار غَوْر الجراحة ، وسَبَرها : قاسها به ، يفعل ذلك الطبيب للقصاص أو للدواء ، ويقال لحديدته : السِّبار والمِسْبار والمِسْبَر والمكحل والميل والمِرْود والمجراف . تبين : تتبيّن . يضطر : يُلجأ . حاطب ليل : جامع الحطب بالظلام ، وهذا مثل لأكثم بن صيفى حكيم العرب ، ذكره أبو عبيد فى الأمثال[2] ، وقال : إنما شبّهه بحاطب الليل لأنه ربّما نهشته الحيَّة أو لسعته العقرب فى احتطابه ليلا ، فكذلك المهذار ربما أصابه فى إكثاره بعض ما يكره ، قال النرزدق :

كمحتطبٍ ليـــلاً أساودَ هضبةٍ أتاه بها فى ظلمة الليل حاطِبُهْ[3]

وأبيَن من تفسيره أن حاطب الليـــل لا يبصر ما يحتطب ، فهو يؤلّف بين الحطب الكبير والصغير ، والقوىّ والضعيف ، والجيد والردىء ، فكذلك المكثار

(١) ديوانه ٢٩٢ . (٢) فصل المقال ٢٥ ، ولفظ المثل فيه : « المكثار كحاطب الليل » .
(٣) ديوانه ٥١ .

يأتى بالضعيف من الكلام والقوى والجيد والردىء، فشبّهه لذلك بالحاطب، وأراد بـ « عجالب رجل وخيل » ما أراد بحاطب الليل ، لأنّ الراجل ضعيف والفارس قوىّ . والمكثار : الكثير الكلام ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَثُر كلامه كثر سَقَطُه ، ومن كَثُر سقطه كثرت ذنوبه ، ومَنْ كثرت ذنوبه ، كانت النار أولى به ، ألا ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت »[1] .

أقيل : أقيم ورفع . عِثار : انكباب وسقوط ، وإقالة العاثر أن ترفعه من سَقْطته ، ومنه الإقالة فى البيع ونحوه .

* * *

فلَمّا لَمْ يُسْعِفْ بالإقَالَةِ ، وَلاَ أَعْفَى مِنَ الْمَقالَةِ ، لَبَّيْتُ دَعْوَتَهُ تَلْبِيَةَ الْمُطِيعِ ، وَبَذَلْتُ فِى مُطَاوَعَتِهِ جُهْدَ الْمُسْتَطِيعِ ، وَأَنْشَأْتُ - عَلَى مَا أعانِيهِ مِنْ قَرِيحَةٍ جَامِدَةٍ ، وَفِطْنَةٍ خَامِدَةٍ ، وَرَوِيَّةٍ نَاضِبَةٍ ، وَهُمُومٍ ناصِبَةٍ - خَمْسِينَ مَقَامَةً ، تَحْتَوِى عَلَى جِدِّ الْقَوْلِ وَهَزْلِهِ ، وَرَقِيقِ اللَّفْظِ وَجَزْلِهِ ، وَغَرَرِ الْبَيَانِ وَدُرَرِهِ ، وَمُلَحِ الْأَدَبِ وَنَوَادِرِهِ ، إلَى مَا وَشَّحْتُهَا به من الآيات ، وَمَحَاسِنِ الْكِنَايَاتِ ، وَرَصَّعْتُهُ فِيهَا من الْأَمْثَالِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَاللَّطَائِفِ الْأَدَبِيَّةِ ، وَالْأَحَاجِى النَّحْوِيَّةِ ، وَالْفَتَاوَى اللغَوِيَّةِ ، وَالرَّسَائِلِ الْمُبْتَكَرَةِ ، وَالْخُطَبِ الْمُحَبَّرَةِ ، وَالْمَوَاعِظِ الْمُبْكِيَةِ ، والْأَضَاحِيكِ الْمُلْهِيَةِ ، مِمَّا أَمْلَيْتُ جَمِيعَه على لِسَانِ أَبِى زَيْدٍ السَّرُوجِىّ ، وَأَسْنَدْتُ رِوَايَتَهُ إلَى الْحَارِثِ بن هَمَّامٍ الْبَصْرِىّ .

* * *

يُسعف : يؤاتى وينيل الرغبة ، وأسعفت الرجل بمطلبه : ساعدتُه عليه .

(١) الجامع الصغير ٢ : ٣١٤ .

والإسعاف المصدر ، وساعفته مساعفة : قضيت إرادته . ولا أعفَى من المقالة ، أى لم يُعفنى من كلامه وإلحاحه ، وأعفيت : الرجل وعافيته : أزلت عنه مايشقّ عليه ، وأصله التَّرك ، ومنه إعفاء اللحية . وهو أن يتركها على حالها ، ومنه : عفا الله عنك . لبيت : أجبت وقلت : لبيك . أنشأت : ابتدأت وأخذت أفعل . أعانيه : أعالجه ، وأصلها من العَناء وهو التعب . قريحة : ذهن ، وأصلها ماء البئر النابع عند حفرها ، ومنه القُرْحة للجراحة ، لأن أصلها مادة وشبّه الذهن بذلك لما يتولّد عنه من المعانى . فطنة : ذكاء ، والفَطِن : الذكىّ . خامدة : ساكنة ، وخمدت النار : سكن لهبها . رويّة تدبّر ، وروّأت الأمر ، تدبّرتَ كيف تصنعه ، وأصل الرويّة الهمز واستعملت بغير همز . ناضبة : جافة ، ونضب الماء : غار فى الأرض . ناصبة : متعبة ، وهمٌّ ناصب على معنى النسب ، أى ذو نَصَب ، ولو جاء على القياس لقيل : منصِب ، لأن فعله أنصبه الهمّ ، وقال بشْر :

تَعَنَّاكَ هَمٌّ من أُمَيمةَ مُنْصِبُ وجاء من الأخبار ما لا يكذَّبُ[1]

ونَصب نَصَبًا : أعيا من التعب . جزلة : غليظه ومتينة . غُرَر : جمع غُرّة وهى خيار الشىء ومنه غُرّة الفرس وهو البياض فى جبهته فجعلها للبيان مجازاً . دُرَرُه : جمع دُرَّة ، وهى الجوهرة العظيمة ، والكلام الحسن يشبّه بالدّرر والجواهر . مُلح : جمع مُلحة ، وهى مليح الكلام . نوادره : غرائبه . وشَّحتها : زيَّنتُها . الكنايات : ضرب من الألغاز ، وأصل الكناية أن تذكر الشىء بغير لفظه ، إما لإبهام على جليسك أو لتعظيم أو لتحقير ، فالإبهام أن تذكر لفظاً يُفهم من ظاهره غير مرادك ، مثل قوله تعالى حاكياً عن هود عليه السلام ، حين قال له قومه : ﴿إنا لنَرَاكَ فى سفَاهَةٍ ... قال ياقَوْم لَيْسَ بِى سَفَاهَة﴾[2] ، فليس فى اللفظ زيادة على فى

(١) مطلع قصيدة فى ديوانه ٧ ـ ١٢ ، ورواية الشطر الثانى فيه :

* كَذِى الشَّوْقِ لَمَّا يَسْلُهُ وَسَيَذْهَبُ *

(٢) سورة الأعراف ٦٦ ، ٦٧ .

السفاهة ، وقد تضمّن الكلام التكذيب لهم والتعظيم ، مثل كناية الرجل بأبى فلان ، تُرك اسمه وعدل إلى كنايته تعظيما له . والتحقير : أن يكون الشيء خسيساً فتأنف من ذكره فتذكره بغير اسمه ، مثل قوله تعالى: ﴿ كَانَا يَا كلاَنِ الطَّعَام ﴾[1] فكنى عن الحدَث بالأكل لمَّا كان يتولد عنه . رصّعته : نظمته ، وألصقت بعضه ببعض ، وتاج مرصّع : مزيّن بخرز وجوهر يُنظم فيه . اللَّطائف : الرقائقُ والكلمة اللطيفة ، أى الرقيقة المعنى التى تحلّ فى القلب فتلطّفه . الأحاجى: ضرب من الألغاز واحدها أُحجيَّة، وهى قولك لصاحبك: أخرِحْ مافى يدى ولك كذا، تقول العرب : أحاجيك مافى يدى ؟ وحُجيَّاك مافى يدى؟ وهى من الحِجَى ،وهو العقل .

الفتاوَى اللغوية ، أرادبها المسائل المائة التى فى الثانية والثلاثين،والفُتيا : إظهار الشيء المسئول عنه عند السؤال . المبتكرة : التى لم يُسبَق إليها، وبكَر وابتكَر خرج بُكْرَة ، ومنه الباكور وهو المبكّر من كلّ شيء فى الإدراك ، وبِكْر كلّ شيء : أوّله . المحبَّرة : المزيّنة ، وحبَّرت الشيء تحبيراً زيّنته ، وأصلها من الحِبْر، وهى ثياب تصنع باليَمَن فيها رقوم وتزيين . أمليت : ألقيت ، وأمليت على الصَّبىّ : ألقيت عليه ما يُكتب . أسندت : رفعت .

* * *

وَمَا قَصَدْتُ بِالْإِحْمَاضِ فِيهِ ، إلاَّ تَنْشِيط قَارِئِيهِ ، وَتَكْثِيرَ سوَادِ طَالِبِيهِ . وَلَمْ أُودِعْهُ مِنَ الْأَشْعَارِ الْأَجْنَبِيَّةِ إلاَّ بَيْتَيْنِ فَذَيْنِ ، أَسَّسْتُ عَلَيْهِمَا بِنْيَةَ الْمَقَامَةِ الْحُلْوَانِيَّةِ وَآخَرَيْنِ تَوْأَمَيْنِ ضَمَّنْتُهُمَا الْمَقَامَةَ الْكَرَجِيَّةَ[2] ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَخَاطِرِى أَبُو عُذْرِهِ ، وَمُقْتَضَبٌ حُلْوِهِ وَمُرِّهِ .

(١) سورة المائدة ٧٥ .

(٢) ا ، ط: «خواتم المقامة الكرجية» ،وما أثبتة من ج .

هَذا مَعَ اعْتِرَافِي بِأَنَّ الْبَدِيعَ رَحِمَهُ اللهُ سَبَّاقُ غَايَاتٍ ، وَصَاحِبُ آيَاتٍ ، وَأَنَّ الْمُتَصَدِّيَ بَعْدَهُ لِإِنْشَاءِ مَقَامَةٍ ؛ وَلَوْ أُوتِيَ بَلَاغَةَ قُدَامَةَ ، لَا يَعْتَرِفُ إِلَّا مِنْ فُضَالَتِهِ ، وَلَا يَسْرِي ذَلِكَ الْمَسْرَى إِلَّا بِدَلَالَتِهِ .

* * *

الإحماض : الانتقال من شيء إلى شيء، وأصله فى الإبل ترعى الحُلَّة ، وهى حُلْو المرعى فتملّه فتنتقل إلى الحِمْض تأكل منه فيُذهب الحمض عن قلوبها استيلاء الحلاوة ، فتنشط بذلك على الرعى فيقال : أحمض الرجل إحماضا ، والعرب تقول : الحُلة خبز الإبل ، والحمض فاكهتها ، فأراد به تنقّله فى المقامات، من حكاية فائقة ، إلى قضية رائقة ، ومن موعظة تُبكى إلى ماهية تُسلّى ، وفى ذلك تنشيط وترغيب فى قراءتها ، وَنَفْيٌ للملل والكسل عن قارئها . سواد : أشخاص ، ويسمّى الشخص سواداً ، لأنه يسوّد الأرض بظله . أودعه : أضمّنه . الأجنبيّة : التى ليست من شعره ، والأجنبيّ : من ليس بينك وبينه قرابة، من الجنابة وهى البعد . فَذَّيْن : منفردين . هذا من سُعر وهذا من آخر . توءمين : أخوين من شِعْرٍ واحد . أسّست : أصّلت ، والأساس أصل الحائط . الحُلْوانية والكَرَجِيَّة : منسوبتان إلى حُلوان والكَرَج ، وهما بلدان . ماعدا : ماجاوز . خاطرِى : ذهنى . أبو عُذره ، أى أوّل صانع له ، يقال للمرأة : فلان أبو عُذْرِها ، أى أول زوج تزوجها فوجدها عذراء فافتضّها وأزال عُذْرَتها ، أى مابها من صعوبة . مقتضِب . مقتطع . حُلْوِه ومُرِّه : جيّده ورديئه .

غايات : جمع غاية وهى طَلَق[1] الخيل ، والسّباق منها الذى يجىء أبدا سابقاً .

(١) الطلق : الشوط الواحد فى جرى الخيل .

المتصدّى : المتعرّض . بلاغة : فصاحة ، وأصلها أن يبلغ الإنسان من الكلام والحجة ما أراد .

[ذكر قدامة بن جعفر]

قُدَامة ، هو أبو الوليد[1] بن جعفر ، كان بليغاً مجيداً عالماً بأسرار صنعة الكتابة ولوازمها ، وله كتاب يعرف بسرّ البلاغة فى الكتابة ، وترجمته تدلّ على متضمَّنه ، وله تحقيق فى صنع البديع يتميّز به عن نظرائه ، وتدقيق فى كلام العرب يُرْبِى فيه على أكفائه ، وتحذيق فى علوم التعليم أضرم فيها شعلة ذكائه ؛ فلذلك سار المثل ببلاغته ، واتّفق المتقدّم والمتأخر على فضل براعته .

الفُضَالة : البقيّة من الماء وغيره ، وهى ما فَضَل عن الحاجة . واغترفها : أخذها بيده يَسْرِى ذلك المسرَى : يقصدذلك المقصد ، وأصل يسرِى ، يسير بالليل . دِلَالته : تقدّمه وهدايته ، وتفتح دالها وتكسر ، والفتح أكثر . والدليل بالفلاة : الذى يهدى القوم قصدهم .

* * *

وَلِلّٰهِ دَرُّ القائلِ :

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً
بِسُعْدَى شَفَيتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي الْبُكَا
بُكَاهَا ، فَقُلْتُ : الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

* * *

(١) كنيته فى معجم الأدباء ١٨ : ١٢ « أبو الفرج » ، واسمه قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب . قال : « كان أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء ؛ وممن يشار إليه فى علم المنطق » .

مبكاها : بكاءها . صَبابة : شوقا هيّج : حَرّك ، والبيتان لعدىّ بن الرقاع ، وقبلهما :

وممّا شجانى أننى كنت نائماً أعلَّل من فرط الكرى بالتنشّمِ[1]
إلى أن دعت ورقاء فى غصن أيكةٍ تُردّد مبكاها بحسن الترنّمِ
فلو قبل مبكاها . . .

[عدىّ بن الرّقاع]

وعدىّ هو أبو زيد بن مالك ، ينتمى إلى معاوية بن الحارث ، وينسب إلى الرّقاع وهو جدُّ جَدّه . وكان شاعراً مقدَّماعند بنى أمية، مدّاحاً لهم ، خاصًّا بالوليد بن عبد الملك ، ومنزله بدمشق ، وهومن حاضرة الشعراء لا مِنْ باديتهم ، وكان من أوصف الناس للمطيّة ، وكذا ذكره صاحب الأغانى[2] فى ترجمته .

وقال نوح بن جرير لأبيه : مَنْ أنسب الناس[3]؟ قال : ابن الرقاع فى قوله :

لولاَ الحياء وأنَّ رأسى قَدْ عَسَا فيه المشيبُ لزرتُ أمّ القاسمِ[4]
وكأنها بين النّساء أعارها عينيه أحورُ من جآذر جاسمِ
وَسْنَانُ أقصده النّعاس فرنّقتْ فى عينه سِنةٌ وليسَ بنائمِ

* * *

أقرّ الحريرىّ هنا للبديع بالفضل ، وجعله سبّاقا للغايات ، وما أحسن هذا الأدب منه ، مع علمه بفضل مقاماته على مقامات البديع ، ومن أدلّ دليل على ذلك أنه منذ ظهرت مقامات الحريرىّ لم تُستعمَل مقامات البديع ، ثم إنه طبّق استعمالها آفاقَ الأرض، إلا أنه أسرَّ هنا شيئاً ،لأنه ختم كلامه ، بأنّ البديع فَضَله بالتّقدّم ؛ وهذا منه مذهب مستحسَن ، ألا تراه كيف بدأ بتجريد الفضل للبديع وحدَه ،

(١) الكامل للمبرد ٣ : ١٢٥ ؛ قال أبو الحسن الأخفش : الصحيح أن الشعر لعبيد .
(٢) الأغانى ٩ : ٣١٠ (٣) الأغانى : « الشعراء »
(٤) الأغانى ٩ : ٣١٣ ، وعسى ، أى اشتد وانتشر .

ثم لم ير لنفسه قدراً فى قوله : « وإن لم يدرك الظّالعُ شأوَ الضليع » ؛ فجعل نفسه كالفرس الأعرج الذى جريُهُ إذا اجتهد دون مشى الصحيح ، وجعل البديعَ كالفرس العتيق الكامل القوّة . ثم لمّا بلغ إلى هذا الموضع بعد أسطار صرّح فى الظاهر للسامع بأنّ البديع سبّاق غايات ، وصاحب آيات ، وأومَى لمن فطن ، أنه إنّما فضّله بتقدّم الزمان . ثم خلط الكلام فى الخفاء بين المتقدّمين والمتأخرين ، ثم تناسى ذلك إلى آخر الكتاب فى السابعة والأربعين ، وصرّح هناك بتفضيل المتأخر على المتقدّم وتفضيله نفسَه على البديع ، حيث يقول :

إن يكُنِ الإسكندرىّ قبلِى فالطّلّ قد يبدو أمامَ الوَبْلِ

* والفضلُ للوابل لا للطَّلِّ *

ولو كان غيره من العلماء المنسوبين إلى سوء الأدب، ورأى فضل مقاماته ، لذمّ البديع ونقص كتابه فكان ينعكس الذمّ عليه ؛ وكذا رأينا فى الغالب مَن ادّعى لنفسه فضلاً ، وازدرى غيره، أنه قلّما يكون إلا ممقوتا ، فلما أظهر الحريرىّ مدحَ البديع ، ووفّاه قسطَه من التفضيل والترفيع ، ولم ينظر إلى نفسه إلا بطرف خفىّ قلّ من يتفطّن له ، ستر الله عليه ورفع صيته ، ووضع لكتابه القبول عند الخاصة والعامة .

فشرّقَ حتى لم يجد ذكر مشرِقٍ وغرّب حتى لم يجد ذكر مَغْرِبِ[1]

فلا يذمّ كتابه إلا أحد الرجلين فذين ذكرهما؛ إمّا جاهل ، أو حاسد .

* * *

[القديم والحديث فى الأدب]

ومذهب الناس فى تفضيل الحديث على القديم؛ وأكثرهم على تفضيل القديم ، وقد أحسن حبيب حيث يقول :

نقّلْ فؤادك حيث شئت من الهوَى ما الحبّ إلا للحبيب الأوّلِ[2]

(١) ط : « مغرب ... مشرق » ، والوجه ما أثبته من ا ، ب .

(٢) ديوانه ٤٥٧ .

كم منزلٍ فى الأرض يألفه الفتى وحنينُه أبداً لأوّل منزلِ

وقال :

لاَ زِلْتَ مِنْ شكرِىَ فى حُلّةٍ لابسُها ذو سلَبٍ فاخرِ[1]

يقول من تقرع أسماعَه : ما تركَ الأوّل للآخر

وذكر ابن شرف علة ذلك فقال :

أُولع النَّاس بامتداح القديمِ وبذمّ الحديثِ غير الذَّميمِ

ليس إلا لأنهم حسدوا الحىّ ومالوا إلى العظام الرَّميمِ[2]

وللمتأخرين شعر كثير فى تفضيلهم أنفسهم على المتقدّمين ؛ من أحسنه قول المعرّى :

وإنّى وإن كنتُ الأخيرَ زمانُه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ[3]

وقال ابن عمار :

أنا ابنُ عمار لا أخفى على أحدٍ إلا على جاهلٍ بالشمس والقمرِ

إن كان أخّرنى دهرى فلا عجبٌ فوائدالكتبِ يُستلحقْن فى الطُّرَرِ

والّذى ذكر أبو العباس فى الكامل هو الحق ، قال : وليس لِقدم العهد يفضَّل القائل ، ولا لحداثة العهد يُهضم المصيب، ولكن يعطَى كلٌّ ما يستحقّ[4]

[القول فى الحمام]

وأمّا بيت عدىّ فى الحمام ، فالحمام قد كثر ذكر العرب لها فى أشعارها ، ونلمّ هنا بفصل منها ؛ يروى عن علىّ رضى الله عنه أنه اشتكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحشة فقال له : «اتّخذ حمامةً تؤنسك وتصيب من فراخها ، وتوقظك للصلاة بتغريدها » .

(١) ديوانه ١٤٣ .
(٢) ألف باء ١ : ٥٩ ، ٦٠
(٣) سقط الزند ٥٢٥ .
(٤) الكامل ١ : ٢٩ .

ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتخذوا الحمام فإنها تلهى الجنَّ عن صبيانكم »[1] .

وروى جابر رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يعجبه النظر إلى الحمام الأحمر وإلى الأترجّ .

وكان إبراهيم بن سيّار يعجَب بالحمام ، وكان إذا ذكرها يقول : إنّ الله جمع فيها حسنَ المنظر ، وكريم المخبر ؛ تكفيك مؤنتها ، وتكثر لديك معونتها ؛ فهى للطارق عُدّة ، وللمستوطن لذّة ، تطعم فى الصحراء ، وتعود عليك بالسَّرّاء ، ويأنس الوحيد بحركاتها ، وتُغْنيه عن الأوتار بنغماتها ؛ وغيرها من الطير يستعجم وهى ناطقة ، وينفر عنك وهى داجنة ، وفى طباعها سكونٌ إلى الناس واستئناس بهم ، وهى طير عفيف ، يبقى الذَّكَر بعد الأنثى مفرداً ، والأنثى مثل ذلك ، مع شدة اتّفاقهما على المحبّة ، إن طارا طارا معاً ، وإن وقعا وقعا معا ، لها سرعة طيران ، لا تكاد تصيدها سباع الطير إلا بحيلة .

ولم تزل العرب تستحسن تسجيع الحمام وتغريد البلبل والوَرشان ، وقد ذكرت العرب من رقّة تسجيعه ما يبعث التذكّر ، ويولّد الشجون ، ويهيج الأسى ، ويجدّد رقّة القلب ؛ حتى يجعل البكاء فرضاً معها ، والتصابى لازماً لأجلها ، وأعراب وادى القرى إذا ظفروا بشراب الطائف ، أتوا حوائط النخل عند استعلاء الظهيرة ، إذا صارت الوراشين والفواخت إلى تلك الظلال ، فيشربون ويأنسون بتغريدهنّ ، ويقيمون ترجيع أصواتهنّ مقام المزامير والأوتار . وأنا أسوق من المنظوم ما يوافق هذا النثر ، كقول أبى صخر الهذلىّ :

ولمّا دعتْ غَوْريّةُ الأيكَ سَجّعَتْ فسجّع دمعِى يستهلُّ ويستشرِى[2]

---

(١) الجامع الصغير ١ : ٩ ، ولفظه : « اتخذوا هذه الحمام المقاصيص » .
(٢) زيادات شرح أشعار الهذليين ١٣٣١ ، عن الشريشى .

يذكّرني شجوى دعاء حمامةٍ ويبعث لوعاتِ الصَّبابة فى صدرى
بكتْ حزناً رزءَ الهَدِيل وشفَّنى فراقُ حبيبٍ ضاق عن فقدِه صبرى

وأنشد الأصمعىّ فقال :

أيّها البلبـــل المغرّد فى النَّخْـــل غريباً عن أهلِه حَيْرانَا
أفِراقا تشكوه أم ظَلْتَ تدعو فوق أفنـان نخلةٍ وَرَشانا !
هاجَ لى صوتُك المغرّد شجواً رُبّ صوتٍ يهيِّج الأحزانَا

وقال آخر :

أحنّ إلى حوائط ذات عِرْقٍ لتغريد الفواختِ والحمامِ (١)
ألمّ بها بكلّ فتًى كريم من الفِتْيان مخلوع الزِّمامِ

وقال آخر :

إذا غَنَّتْ على الأغصان وُرْقٌ أجَبْنَاها بإعمـال المُـدَامِ

وقال آخر :

سيُغنيك عن مزمارِ آل محرّقٍ ومربعهمْ تغريد تلك الحمائمِ
بأيكة أطيار تجاوبْنَ بالضحى عَلَى باسقاتٍ مائلات نواعِمِ

وأنشد أبو علىّ عفا الله تعالى عنه :

ومن بستان إبراهيمَ غَنّتْ حمائمُ بينها فَنَنٌ رطيبُ (٢)
فقلتُ لها وُقيتِ سهام رامٍ ورقط الريش مطعمها الحبوبُ
كما هيّجت ذا حزن مُعَنًّى على أشجانِه فبكى الغريبُ

وقال نصيب :

لقـد هتفتْ فى جُنح ليلٍ حمامةٌ تبـكّى على إلفٍ وإنى لنائمُ (٣)

(١) ذات عرق : مهل أهل العراق . وهو الحد بين نجد وتهامة ــ ياقوت .
(٢) البيت الأول فى معجم البلدان ٢ : ١٧٠ ، وقال : « وأنشد الأبيوردى لبعضهم » وبستان إبراهيم فى بلاد أسد .
(٣) من أبيات أربعة فى ديوان المجنون . وكذا نسبهما صاحب نثار الأزهار ٧٥ .

كذبتُ وبيت الله لو كنتُ عاشقاً ... لَمَا سبقتنى بالبكاءِ الحمائِمُ

وأنشد أبو العباس لحميد بن ثور :

وما هاجَ هذا الشَّوقَ إلاَّ حمامةٌ ... دعت ساق حرٍّ ترحةً وترنُّما[1]

مُحَلَّأةُ طوقٍ لم يكن من تميمةٍ ... ولا ضربَ صَوّاغٍ بكفّيه درهما

تَغَنَّتْ على غصنٍ عِشاءً فلم تَدَعْ ... لنائحةٍ فى نوحها متلوَّما

إذا حرّكَتْهُ الريح أو مال ميلةً ... تغنَّتْ عليه مائلا ومُقَوَّما

عجبت لها أنَّى يكون غناؤها ... فصيحاً ولم تَفْغَرْ بمنطقها فَمَا

فلم أرَ مثلِي شاقَه صوتُ مثْلِها ... ولا عَرَبيًّا شاقه صوت أعجما

وقال حبيب :

لتضعضعت عبراتُ عينك أن دعَتْ ... ورقاء حين تضعضع الإظلامُ[2]

لا تشجَيَنَّ لها فإن بكاءها ... ضحك وإنَّ بكاءك استغرامُ

هنّ الحمام ، فإن كسرتَ عِيافةً ... من حائِهنّ فإنّهنَّ حِمامُ

وسمع حبيب بخراسان غناء بالفارسية ، فلم يدر ما هو،غير أنه شوّقه فقال :

حمِدْتُكَ ليلة شَرُفت وطالتْ ... أقام سهادُها ومضَى كَراها[3]

سمعتُ بها غناءً كانَ أولى ... بأن يقتاد نفسِى مِنْ عَنَاها

ومسمعةً يحارُ السمعُ فيها ... ولم تصمِمْه لا يصممْ صَدَاها

---

(١) الكامل ٣ : ١٢٤ ، قال : « أما قول حميد : دعت ساق حر ؛ فإنما حكى صوتها » . وفى شرح الديوان : هو ذكر القمارى . وبعده فى الكامل :

إذا اشتُ غَنَّتْنى بأجزاعِ بيشةٍ ... أو النَّخل من تثليث أو بيلملما

مطوقة خَطْبَاء تَسْجَعُ كُلَّمَا ... دَنَا الصَّيْفُ وانجاب الربيعُ فأنْجَمَا

انجال : أقلع . وانظر ديوان حميد ٢٤ ـ ٢٧ .

(٢) ديوانه ٢٧٩ وروايته « انحدرت » .

(٣) ديوانه ٤٦٧ ، وروايته :

شَكَرْتُكِ ليلةً حسنتْ وطلبتْ ... أقام سرورها ومضَى كراها

ولم أفهم معانيها ولكنْ وَرَتْ كبدى فلم أجهل شَجَاها
وظَلْتُ كأننى أعمَى معنًّى يحبُّ الغانيات ولا يَرَاهَا

يعنى بهذا الأعمى بشاراً حيث يقول :

ياقوم أذْنى لبعضِ الحىّ عاشقةٌ والأذن تعشق قبل العين أحيانَا[1]
قالوا بمن لاترى تهذِى! فقلت لهم: الأذن كالعَيْنِ تُوفِى القلب ما كانا[2]

* * *

وَأَرْجُو أَلاَّ أَكونَ فِى هَذا الْهَذَرِ الَّذِى أَوْرَدْتُهُ ، وَالْمَوْرِدِ الَّذِى تَوَرَّدْتُه ، كَالْباحِثِ عَنْ حَتْفِهِ بِظِلْفِهِ ، وَالْجَادِعِ مَارِنَ أَنْفِهِ بِكَفِّهِ ، فَأَلْحَق بِالأَخْسَرِينِ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا .

* * *

قوله : « الهذر الذى أوردته » ، أى الإكثار الذى أتيتُ به ، وقد تقدّم المورد[3] . وتورّدته : اقتحمته. الباحث : المفتش ، والظّلف: للبقر والغنم كالحافر للخيل والحمير . وهذا مثل للعرب : وذلك أن ماعزة كانت لقوم ،فأرادوا ذبحها فلم يجدوا شَفْرةً ، فنبشت بظلفها فى الأرض ، فاستخرجت منها شفرة ، فذبحوها بها ، وقالوا : بحثتْ عن حتفها بظلفها ، فسارت مثلا .وقال الشاعر :

وكانتْ كعنز السوء قامت بظلْفها إلى مُديةٍ تحت الثَّرى تستثيرُها[4]

---

(١) الأغانى ٣ : ٢٣٨ .
(٢) توفى ، أى تبلغ.
(٣) صفحة ١٨ من هذا الجزء
(٤) للفرزدق ، ديوانه ٧١ ، وروى أبو عبيد قبله :
وكان يُجير النَّاسَ من سيفِ مالكٍ فأصبح يبغى نفسه مَنْ يجيرُها

وقال أبو الأسود :

فلا تكُ مثل التى استخرجت بأظلافها مُدْيَةً أو بِفِيهَا[1]
فقامَ إليهـا بها ذابحٌ ومَنْ يَدْعُ يوماً شَعوباً يَجِيهَا[2]

ولفظ المثل عند أبى عبيد « كالعنز تبحث عن المدية »[3] والجادع : القاطع الأنف. والمارن : طرَف الأنف ، وأراد به قصيراً مولى جذيمة الأبرش. وقد ذكرنا قصته فى شرح الرابعة والعشرين. ورجا المصنف ألاّ يدركه من الضرر ما أدركا[4] من الضّرر حين جنيا على أنفسهما وانتفع غيرهما . ضلّ سعيهم : خابت أعمالُهم ، وأصل ضلّ، تحيّر فلم يدر أين يتوجّه ، وأصل السعى المشى بسرعة . سمع أعرابىّ رجلا يقرأ ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بالأخْسَرِينَ أَعمَالاً ﴾ ، فقال: أنا أعرفهم ، قيل له : ومن هم ؟ قال : الذين يبرّدون ويأكل غيرهم .

* * *

عَلَى أَنِّى وَإِنْ أَغْمَضَ لِى الْفَطِنُ الْمُتَغَابِى ، وَنَضَحَ عَنِّى الْمُحِبُّ الْمُحَابِى ، لاَ أَكَادُ أَخْلُصُ مِنْ غُمْرِ جَاهِلٍ ، أَوْ ذِى غِمْرٍ مُتَجَاهِلٍ ، يَضَعُ مِنِّى لِهَذَا الْوَضْعِ ، وَيُنَدِّدُ بِأَنَّهُ مِنْ مَنَاهِى الشَّرْعِ .

وَمَنْ نَقَدَ الأَشْيَاءَ بِعَيْنِ الْمَعْقُولِ ، وَأَنْعَمَ النَّظَرَ فِى مَبَانِى الأُصولِ ، نَظَمَ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ ، فِى سِلْكِ الإِفَادَاتِ ، وَسَلَكَهَا مَسْلَكَ الْمَوْصُوعَاتِ ، عَنِ الْمَجْمَاوَاتِ وَالْجَمَادَاتِ .

* * *

(١) ديوانه ٢٢ (ضمن مجموعة نفائس المخطوطات) .
(٢) رواية الديوان : « ومن يدع يوما شعوب » ، والشعوب : علم على المنية .
(٣) فصل المقال ٢٨٨ . (٤) كذا فى ا وفى ط: « أدركهما » .

أغمض : سامح وسدّ عينيه عمّا لم يرض. والفطِن : الذكيّ . المتغابى: المتحاهل عن الشيء وهو عارف به ، وهو مما يُحمَد به الرجل ، قال حبيب :

ليس الغبيّ بسيّد فى قومِه لـكنّ سيّد قومه المُتغابِى[1]

ونَضَح بالماء : غسل. المحابى : الذى يفضّلنى على غيرى ، وحبانى: اختصّنى بالعطيّة ، وأصل حاباه أن تعطيَه ويعطيك ، وقد يكون فى معنى «حَبَاه» . الغُمْر : الجاهل ذِى غِمْر: صاحب عداوة . متجاهل : مستعمل للجهل وهو على خلافه ؛ يقول: إن سدّ عينيه عن عيبى فَطِنٌ ذو عقل ، أو تغابى حين يبصر لى خطأ ، أو رأى لى ذلك العيب محبّ ، فجعل يغسله عنّى لمحبته لـكلامى ؛ فلا أخلص مع ذلك ، إمّا من جاهل يعيب مالا يفهم، أو من عارف يُظهر لى عداوة وحسداً، فيردّ حسَنى قبيحاً ، وهو عارف بحسنى ؛ فيشيع فى الناس أنّ المقامات أكاذيب ، وهو عارف بفضلها وماقصِد بها .

[من أقوالهم فى الحقد مدحا وذمًّا]

والغِمْر : الحقد ، وصاحبه مذموم ، ولا أعرف من تعرّض من الفصحاء لمدح حامله سوى مايحكى أن عبد الملك بن صالح جىء به إلى الرشيد فى قيوده ، فقال له ابن خالد ـ وأراد أن يبكّته : بلغنى أنك حقود ، فقال عبدالملك : أيها الوزير ، إن كان الحقد هو بقاء الخير والشر ؛ إنهما لباقيان فى صدرى ـ وفى رواية أخرى : إنما صدرى خِزانة تحفظ ما استودعت من خير أو شرّ ـ فقال الرشيد : والله مارأيت أحدا احتجّ للحقد بمثل ما احتجّ به عبد الملك ، ففتح الباب لابن الرومىّ ، فقال يخاطب بعض من عابه بالحقد:

لئن كنتُ فى حفظى لما أنا مودَعٌ من الخير والشرّ انتحيت على عرقى

(١) ديوانه ، الورقة ١٥٤ مخطوطة دار الكتب رقم ١٢٩ ـ أدب

لَمَا عِبْتَنِي إلاَّ بفضـــل أمانةٍ ورب امرئٍ يُزرِى على خُلُقٍ محضِ[1]

ولولا الحُقود المستكنّات لم يكن

لينقض وترا آخرَ الدَّهْرِ ذو نقضِ

وما الحقدُ إلّا توءم الشُّكْرِ فى الفتَى

وبعض السجايا ينتسبن إلى بعضِ

فحيثُ ترى حِقْداً على ذى إســاءة

فثَمَّ ترى شُكْراً على حَسَنِ العَوْضِ

ثم رجع إلى الطريقة المثلى، فانتحل المذهب الأعلى، وقال يعيبه، ضاربا بسهم البلاغة فى الوجهين :

يامادح الحقد محتالا له شَبَهـاً لقد سلكت إليه مسلكاً وَعِثَا[2]

يادافنَ الحِقْد فى ضِغْنٍ جوانِحِه ساء الدَّفين الذى أضحتـله جَدَثَا

الحِقْدُ داءٌ دوِىٌّ لادَوَاء له يَرِى الصدور إذا ماجَمْرُه حُرِثَا

فاستشفِيَنْهُ بصفحٍ أو محادثة فإنما يُبْرَأ المصدور ما نَفَثَا

إنّ القبيح إذا أصلحت ظاهِرَه يعود ما لمّ منـــه مَرّةً شَعِثَا

كم زَخرف القولَ ذو زورٍ ولَبَّسَهُ على العقول ولـكن قلّما لبِثا

* * *

قوله: « يضع منّى » أى يحطّ من منزلتى. الوضع: الكتاب. يندّد: يشهر العيب، وندّد به، إذا أسمعه المكروه. نقد الأشياء: فتّش وبحث عليها. المعقول = العقل. أنعم: بالغ. وأصل النّظم جعل حبّات الجوهر فى خيطها وضمّها فيه لغيرها، ثم سُمِّىَ بيتُ الشعر نظاما، لأن الكلام فيه ملتصق بعضه ببعض كحبّ الجوهر =

(١) الديوان: « إلا بما ليس عائى . . وكم حاهل يزرى » .
(٢) ديوانه الورقة ٤٥ ، مخطوطة دار الكتب ١٢٩ ـ أدب .

والبيت يضمه كالخيط ، والسلك : خيط الجوهر . والإفادات : الفوائد . سلَك: قصد. الموضوعات: الكتب المؤلفة ، أى أدخلها مدخل هذه الكتب. العجماوات: البهائم ، وسمّيت واحدتها عجماء لأن صوتها لا يُفهم منه معنى . والجمادات : ما عدا الحيوان ، وأراد ما أُلِّفَ من الكتب مما لا حقيقة له فى الظاهر ، وقد ضُمِّنَ الحِكَم الشافية فى الباطن ،مثل كتاب كليلة ودمنة وغيره مما ألف على ألسنة ٨
مالا عقل له ولا روح . وكذلك المقامات ، وإن كان ظاهرها كذبا فالقصد بها تمرين الطالب وتهذيبه وتذكية عقله ، وأن يكتسب تجارب الدّنيا من حكايات السَّروجىّ ، فيكون متنبّهاً لما يطرأ عليه من النَّوازل ، فتؤمن على عقله الغفلة ٩
والخديعة ، إلى ما ينضاف إليه من تعليم صنعة الكتابة والشعر ، فإنّها أعون شىء عليها .

[مما روى من الحكم على ألسنة البهائم وغيرها]

ومما يحكى على ألسنة البهائم ما جاء فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: بينا راع فى غنم إذ عدا عليها الذئب ، فأخذ شاة منها ، فطلبه الراعى منه حتى استنقذها ، فالتفت إليه الذئب وقال : من لها يوم السَّبُع ، يوم ليس لها راع غيرى ! »[1] .

بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها ، فالتفتت إليه البقرة فكلّمته فقالت: أنا لم أُخلَق لهذا ، وإنما خلقت للحرث ، فقال الناس: سبحان الله ! تعجبا وفزعاً ؛ أبقرة تتكلم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإنى مؤمن بذلك أنا وأبو بكر وعمر »[1] .

السَّبُع ، بسكون الباء : أرض المحشر والسبع : الفزع.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود وحتى يختبىء اليهودىّ وراء الحجر فيقول الحجر :ياعبدَ الله، يا مسلم هذا يهودىٌّ ورائى فاقتله »[2] .

(١) صحيح مسلم ١٨٥٧ ، ١٨٥٨ (٢) صحيح مسلم ٢٢٣٩

قالوا. خرج أسد وذئب وثعلب يتصيّدون، فاصطادوا حمار وحش وغزالا وأرنبا، فقال الأسد للذئب : اقسم بيننا هذا ، فقال : الحمار للملك ،والغزال لى، والأرنب للثعلب؛فرفع الأسد يده فضربه ضربة ، فإذا هو مجدّل بين يديه .ثم قال للثعلب : اقسمها ،فقال : الحمار يتغدّى به الملك ، والغزال يتعشى به ، والأرنب بين ذلك ، فقال الأسد :ويحك ما أقضاك! مَنْ علّمك هذا القضاء ؟ قال : رأس هذا الذئب .

وحدّث الشعبيّ ، قال : صادرجل قُبّرةً ، فقالت :ماتريدأن تصنع بى ؟ قال: أذبحك وآكلك ، فقالت : والله ما أُشبِع من جوع ، وخير لك من أكلى أن أعلّمك ثلاث خصال : واحدة وأنا فى يدك ، والثانية وأنا على الشجرة ، والثالثة وأنا على الجبل ؛ قال : هاتى: قالت: لاتلهفنّ على مافات، فخلّى سبيلها، فلماصارت على الشجرة قالت : لا تصدّقنّ بما لا يكون أنه سيكون ، فلما صارت على الجبل قالت له : ياشقىّ لو ذبحتنى أخرجت من حوصلتى درّتين ، كلّ واحدة عشرون مثقالاً ، قال : فعضّ الرجل على شفته تاسّفاً ، ثم قال:هاتى : الثالثة ،فقالت : أنت قد نسيت ثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ! ألم أقل لك : لا تلهفنّ على ما فات ، ولا تصدّقن بمالا يكون أنه سيكون! أنا ولحمى ودمى وريشى لايكون فىّ عشرون مثقالا، فكيف يكون فى حوصلتى درّتان كلّ واحدة عشرون مثقالا! ثم طارت وذهبت . وأمثال هذه الملَح أكثر من أن تحصى .

* * *

وَلَمْ يُسْمَعْ بِمَنْ نَبَا سَمْعُهُ عَنْ تِلْكَ الْحِكَايَاتِ ، أَوْ أَنَّهُ رَوَاهَا فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ .

ثُمَّ إِذَا كَانَتِ الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَبِهَا انْعِقَادُ الْعُقُودِ الدِّينِيَّاتِ ، فَأَيُّ حَرَجٍ عَلَى مَنْ أَنْشَأَ مُلَحًا لِلتَّنْبِيهِ ، لَا لِلتَّمْوِيهِ ، وَنَحَا بِهَا مَنْحَى التَّهْذِيبِ ، لَا الْأَكَاذِيبِ ! وَهَلْ هُوَ فِي ذَلِكَ إِلَّا بِمَنْزِلَةِ مَنِ

انْتَدَبَ لِتَعْلِيمٍ ، أَوْ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ !

عَلَى أَنَّنِي رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الْهَوَى وَأَخْلُصَ مِنْهُ ، لاَ عَلَيَّ وَلاَ لِيَا

قوله : «نبا سمعُه» أى ارتفع، وأصله فى السَّيْف إذا ارتفع فلم يمض فى الضربة . أثَّمَ : جعلهم أصحاب إثْم. انعقاد العقود ، أى ارتباط العقائد . حرج : إثم ، وأصل التحريج التضييق . للتنبيه ، أى لينبّه به الغافل الذهنَ فيجعله حاضر الخاطر . نحا منحى : قصد مقصد . التهذيب : التلخيص ، وهذّبت الطالب : أخرجته وخلّصته ، ورجل مهذّب : مخلّص من العيوب . ويروى : ندب وانتدب، فندب دعا ، وانتدب أجاب . وهدى : أرشد . صراط مستقيم : طريق معتدل ، ومَنْ فعل ما ذُكر مأجور غير آثم، لكنّه مع هذا رضىَ أن يخلص ممن يتكلم فى كتابه بتعييب ، وأن يخرج من هذا الكتاب كفافاً لا أجر ولا وزر ؛ بل نرجو له الأجر على نيّة الإفادة والتعليم ، إن شاء الله تعالى .

* * *

وَبِاللهِ أَعْتَضِدُ ، فِيمَا أَعْتَمِدُ ، وَأَعْتَصِمُ بِمَا يَعِيمُ . وَأَسْتَرْشِدُ ، إِلَى مَا يُرْشِدُ ؛ فَمَا الْمَفْزَعُ إِلاَّ إِلَيْهِ ، وَلاَ الاِسْتِعَانَةَ إِلاَّ بِهِ ، وَلاَ التَّوْفِيقُ إِلاَّ مِنْهُ ، وَلاَ الْمَوْئِلُ إِلاَّ هُوَ ؛ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ ، وَهُوَ نِعْمَ الْمُعِينُ !

أعتضد : أستعين. أعتمد : اقتصد . أعتصم : أمتنع. يصم ، يعيب . أسترشد: أستهدى . يرشد : يهدى ويدلّ على الخير . والمفزع: الملجأ ، وكذلك الموئل . وتقول: فزعتُ إلى فلان ، إذا لجأتَ إليه واستعنْتَ به ليحميَك ويمنعك، وفزعت منه :خفته ، والمفزع الذى ذكره مصدر بمعنى الفزع . وتقول : وألت من ذلك ، إذا نجوتَ منه ، وأنت موئلى منه ، أى الذى تنجّينى منه . والمفزع : الموئل والحصن ، تفزع إليه فينجيك من طالبك . أنيب : أرجع . والإنابة : الرجوع إلى الله تعالى والتوبة إليه .

المقامة الأولى وهي الصنعانية

حدّث الحارث بن هَمّام قال : لَمَّا اقْتَعَدْتُ غَارِبَ الاغْتِرَاب ، وَأَنَأْتنِي الْمَتْرَبَة عَنِ الْأَتْرَاب ، طَوَّحَتْ بِي طَوَائِحُ الزَّمَنِ ، إِلَى صَنْعَاء الْيَمَنِ ، فَدَخَلْتُهَا خاوِيَ الْوفَاضِ ، بَادِيَ الإِنْفَاضِ ؛ لاَ أَمْلِكُ بُلْغَةً ، وَلاَ أَجِدُ فِي جِرَابِي مُضْغَةً .

* * *

إن قيل : لأيّ معنى اختار الحريريّ حارثاً وهماماً وأبا زيد، دون غيرهم من الأسماء ؟ فالجواب أنه إنما قصدهم لأنهم أصدق الأسماء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المرفوع : « تَسَمَّوْا بأسماء الأنبياء ، وأحبُّ الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها حارث وهمام ، وأقبحها حرب ومرّة »[1] . وصدْقهما أنه ليس أحد إلا وهو يحرث ، أى يحاول الكسب أو يهمّ بحاجته .

وأما أبو زيد ، فإن صدَق أنه إنسان بعينه كما تقدّم فى الصدر وقع الاكتفاء به ، وإن لم يصدق فقد حكى أهل اللغة أنه كنية الكبَر ، وأنشد ابن قتيبة :

أعار أبو زيد يميني سلاحَه وحدُّ سلاح الدَّهر للمرء كالمُ[2]

وكنتُ إذا ما الكلب أنكر أهله أفدّى، وحين الكلب جذلان نائمُ

سلاحه : العصا. وإنكار الكلب أهله، إذا لبسوا السلاح. وجذلان نائم، فى الجدب إذا ماتت المواشى فيشبع من لحومها وينام . وقال ابن الأعرابىّ: يقال للشيخ الكبير: أبو زيد وأبو سعيد. والسَّروجىّ فى الغالب إنما يصفه بالكبَر والهرم .

(١) نقله فى الجامع فى الصغير ١ : ٢٢٤

(٢) مايعوّل عليه ، مصورة بمكتبة المجمع اللغوى الورقة ٢٠١ .

فوقعت التسمية لغوية، وإنما عنَى بالحارث بن همام نفسه، لأنه يصفه بأشياء لاتليق إلا بالدهر، مثل قوله :

وكل سرحٍ فيـــه ذئبى عائثُ حـــتى كأنى للأنام وارثُ

* سامُهم وحامهم ويافثُ *

ومثل قوله :

ووترت أرْبابَ الأرا ئك والدَّرَانِك والسّجُوفِ

وهى كثيرة ، وفى الحسين له كلام لا يليق إلا بالدّهر، فجعل أخْذَ الحارث من أبى زيد، كناية عن علم الحريرىّ بماجرّب من صروف الدهر .

قوله : «اقتعدت» أى ركبت ، وأصله اتخذت قُعدة أو قَعودًا ، وهما اسمان للبعير يقعد عليه راكبه . والغارب : مقدّم سنام البعير . والاغتراب والغربة : التحوّل فى البلدان والبعد عن الأوطان ، وسيأتى ما أصلهما ، وأراد : لما اتّخذت ظهر الغربة قَعودًا. أنأتنى : أبعدتنى . المتربة : الفقر . الأتراب : الأصحاب على سنن واحد . طوّحت: رمت .

وطوائح : نوائب ؛ تقول : طوّحتُ بالرجل ، إذا رميت به إلى الهلاك ، وقياس الطوائح المطاوح لأنك تقول : طوِّحت فهى مطوّحة والجمع مطوّحات ومطاوح . قال أبو عبيد : جاءت الطوائح على حذف الزيادة ، وردّ الفعل إلى أصله ، فإنه من طاحت فهى طائحة ، والجمع طوائح ، قال أبو عمرو الشيبانىّ : جاءت على النَّسب ، مثل لابن وتامر، أى ذو لبن وذو تمر وذات تطويح ، قال الشاعر :

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصـــومَةٍ ومختبِطٌ مِمّا تُطيحُ الطَّـــوائحُ[1]

ومثله ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾[2] : تقديره ملاقح ، لأنك تقول : ألقَحَت الريح السحاب إذا جمعته وألقته . وضارع مرتفع بمضمر تقديره : يبكيه ضارع ، وهو الذليل .

* * *

[مدينة صنعاء]

صنعاء ، بلد باليمن ، وأضافها إلى اليمن ، لأنّ ثَمّ صنعاء أخرى ، وهى قرية بدمشق . وكان اسم صنعاء فى القديم « أزال » ، قال ابن الكلبيّ والشرقى[3] : ولما وافتْها الحبشة قالوا : نعم ، فسمّى جبلها نعم[4] أى انظر ، فلما نظروا إلى مدينتها ورأوْها حصينة مبنية بالحجارة قالوا : هذه صنعاء ، وتفسيرها هنيّة ، فسمّيت صنعاء[5] .

وحكى الهَمَذانىّ قال : وأهل صنعاء يقولون فى الإسلام : إنّها القرية المحفوظة ، وأنهم سمعوا هاتفاً يقول فى بعض أيام مَنْ حاربهم : كلٌّ عليكِ يا أزال ، وأنا أتحنن عليك !

وأقدم قصور اليمن وأنبهها ذكْراً ، وأبعدها صيتاً غُمدان وقصر أزال ، وهى صنعاء .

---

(١) لنهشل بن حرى ؛ فى مرثية له ؛ وهو من شواهد الكتاب على أن الفعل المسند إلى ضارع « حذف جوازا ، أى يبكيه ضارع . خزانة الأدب للبغدادى ١ : ١٤٧ .

(٢) سورة الحجر ١٥ .

(٣) هو الشرقى بن القطامى ، واسمه الوليد والشرقى لقب له.

(٤) فى ياقوت : « نعم ، أحد حصون اليمن » .

(٥) فى ياقوت : « قالوا : هذه صنعة ، ومعناها حصينة » .

والذى أسس غُمدان وابتدأ بنيانه،واحتفر بئره الذى هو اليوم سِقاية لمسجد جامع صنعاء،سامُ بن نوح عليه السلام، على مايذكره علماء صنعاء واليمن ، وذلك أنّه لمّا مات نوح اجتوى بعده السكنى فى الأرض الشماليّة ، فأقبل طالعاً فى الجنوب يطلب أطيب البلاد ، حتى صار إلى الإقليم الأوّل ، فوجد اليمن أطيبه مسكناً ، وصنعاءَ أطيبَ اليمن ، فوضع مقراته — وهى الخيط الذى يقدّر به البناء ويبنَى على حدّه — فوضع الأساس فى ناحية فجّ غُمدان فى غربىّ الجبل ، وهو اليوم معروف بصنعاء ، فلمّا ارتفع بعث الله طائراً ، فاختطف المقراة فطار بها ، وتبعه سام ، لينظر أين يقع ؛ فأمّ بها جنوب النَّعم من سفح نعم ، فوقع بها ، فلما اتّبعه طار بها ، وطرحها على حَرّة غمدان ، فلمّا قرّت ،علم سام أنه قد أُمِرَ بالبناء هنالك ؛ فأسس غُمدان،واحتفر بيده بئره المسمّى كرامة ، ويُستقَى منها إلى اليوم لكنها أجاج[1] .

خاوى الوفاض : فارغ المزاود ، ويقال : خوّى الرّجل ، إذا سجد فترك بين جسده وبين الأرض خواء ، وخَوّى البعير : بَرَكَ على هذه الحال . والوِفاض: جمع وَفْضة وهى شِبْه الجراب ، وهى أيضاً كنانة السهام إذا كانت من جلد لا من خشب ، فإن كانت من خشب مجلّد أو غير مجلّد فهى كنانة أو جُعْبة .

ابن سيده فى المحكم: الوفضة خريطة يحْمِل فيها الراعى أداته وزاده. والوَفْضة: جُعْبة السهام . قال أبو منصور الأزهرىّ معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم « أنّه أمر بصدقة [أن] توضع فى الأوفاض » :[2] إنهم أخلاط الناس. قال الفراء : هم أهل الصُّفَّة . أبو عبيد: هذا كلّه عندنا واحد ؛ لأنّ أهل الصُّفّة أخلاط من قبائلَ شتّى ، ويمكن أن يكون مع كلّ واحد منهم وَفْضة ، فعلى هذا مَنْ قصر الوَفْضة

(١) معجم البلدان ٤ : ٣٨٦ .

(٢) النهاية لابن الأثير ٥ : ٢١٠ ، قال فى شرحه : « هم الفرق والأخلاط من الناس » .

على الجُعْبة ، وخطَّأ الحريريَّ بأنّ الزاد لا يكون فى الجُعْبة ، فهو المخطئ والجاهل باتساع اللغة . بادى الإنفاض : ظاهر الفقر ، وقد أنفض ، إذا فنى زاده . وأنفضَ الجراب إذا انتفض وسقط ما فيه من بقية الزاد ، ومنه قولهم : النُّفاض يُقطِّر الجلَب[1] ، أى فناء زادهم يجعل إبلَهم قطاراً ، أى مربوطة بعضها خلف بعض ، تساق إلى السوق فتباع ، فيأكلون ثمنها ، قال الهذلىّ :

لَه ظَبْيـــةٌ ولَهُ عُـكَّةٌ إذا أنفضَ القوم لم ينفضِ[2]

ظَبية : جَريب صغير من جلد ظبى . بُلْغة : زاد للمسافر يبلغ به من يومه إلى غده . الجراب : وعاء من جلد يصنع للزاد . مُضْغة : لقمة .

* * *

فَطَفِقْتُ أَجُوبُ طُرُقَاتِهَا مِثْلَ الهَائِمِ ، وَأَجُولُ فِي حَوْمَاتِهَا جَوَلاَنَ الحَائِمِ ، وأَرُودُ فِي مَسَارِحِ لَمَحَاتِي ، وَمَسَايِحِ غَدَوَاتِي وَرَوحَاتِي ، كَرِيمًا أُخْلِقُ لَهُ دِيبَاجَتِي ، وَأَبُوحُ إِلَيْهِ بِحَاجَتِي ، أَوْ أَدِيبًا تُفَرِّجُ رُؤْيَتُه غُمَّتِي ، وَتُرْوِى رِوَايَتُه غُلَّتِي ؛ حَتَّى أَدَّتْنِي خَاتِمَةُ المَطَافِ . وَهَدَتْنِي فَاتِحَةُ الإِلطَافِ[3] ، إِلى نَادٍ رَحِيبٍ ، مُحْتَوٍ عَلَى زَحَامٍ وَنَحِيبٍ ، فَوَلجْتُ غَابَةَ الجَمْعِ ، لِأَسْبُرَ مَجْلَبَةَ الدَّمْعِ ، فَرَأَيْتُ فِي بُهْرَةِ الحَلْقَةِ ، شَخْصًا شَخْتَ الخِلْقَةِ ، عَلَيْهِ

(١) مثل ، ذكره صاحب اللسان ، وقال فى شرحه : « يقول : إذا ذهب طعام القوم أو ميرتهم قطروا إبلهم التى كانوا يضنون بها ، فجلبوها للبيع فباعوها واشتروا بثمنها ميرة » .

(٢) لأبى المثلم الخزاعى . شرح ديوان الهذليين ٣٠٥ . العكة : النحى الصغير . وأنفضوا : ذهب ما عندهم .

(٣) متن المقامات : « الألطاف » ، بفتح الهمزة .

أُهْبَةُ السِّيَاحَةِ ، وَلَهُ رَنَّةُ النِّيَاحَةِ ، وهُوَ يَطْبَعُ الأَسْجَاعَ بِجَوَاهِرِ لَفْظِهِ ، وَيَقْرَعُ الأَسْمَاعَ بِزَوَاجِرِ وَعْظِهِ ، وقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ أَخْلاَطُ الزُّمَرِ ، إِحَاطَةَ الهَالَةِ بِالْقَمَرِ ، والأَكْمَامِ بِالثَّمَرِ ، فَدَلَفْتُ إِلَيْهِ لأَقْتَبِسَ مِنْ فَوَائِدِهِ ، وَأَلْتَقِطَ بَعْضَ فَرَائِدِهِ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ حِينَ خَبَّ فِي مَجَالِهِ ، وهَدَرَتْ شَقَاشِقُ ارْتِجَالِهِ :

* * *

طفقت : أخذت وجعلت ، ومعناها ابتداء الفعل والدّخول فيه . أجوب : أقطع وأخرق ، وجَوْب الأرض : قطعها بالمشى . الهائم : الحيران . أجول : أتصرّف . حوماتها : جهاتها . الحائم : الطائر العاطش يحوّم حول الماء ، أى يدور به . أرود : ألتمس المسارح : مراعى البهائم . لَمَحاتى : نظراتى ، يريد المواضع التى يسرِّح عينيه فيها بالنظر . مسايح : مسالك ، أراد طُرَقَه التى يسير فيها بالمشى بالغدوّ والعشىّ ، والسَّيْح : الماء الجارى على وَجْه الأرض ، وتكون المسايح أيضا جمع مَسِيحة أو مَسْحَة ، وهى الطَّوْفة ، من قولك : مسحت البيت ، أى طفت به ، فيكون على هذا « فعائل » ميمها أصلية ، وعلى الأول « مفاعل » . أُخلِق : أهين . ديباجتى : جلدة وجهى ، يريد أنه يخلق وجهه بالمسألة كما يخلق الثوب ، وهذا من قول النبى صلى الله عليه وسلم : « المسألة كدوح وخدوش فى وجه صاحبها » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال المسألة بالرَّجل حتى يلقى الله عز وجل ، وما على وجهه مَزْعة لحم » ، أى قطعة . أبوح : أذكر . حاجتى : فقرى . تفرّج : تزيل . غُمَّتى : غمّى ومايضيق نفسى . غُلَّتى : عطشى . أدّتنى : أوصلتنى . خاتمة المطاف : آخر المشى . هدتنى : دلّتنى . والإلطاف : حسن السؤال وفاتحته ، أراد به سؤاله مَنْ تَلْقَى فى الطريق إذا دخلت بلداً غريبا ، فإذا سألت بتلطّف أرشِدْت بسرعة ، فسؤالك هو الذى فتح لك الطريق . ويقال :

لطَف سؤال الرّجل ، إذا رقّ لفظه ولم يكن فيه جفاء ، فتقبله القلوب ، وألطف الرجل سؤالَهُ، إذا سألك بحنان وتلطّف، واللطف الرفق ، وألطفتك أيضا: بَرَرْتك وأكرمتك، فالإلطاف مصدر ألطف ، ويروى : «الألطاف» جمع لُطْف وهو الرّفق ، يقال: لطف الله بالعباد لُطْفاً، رَفَق بهم رفقاً ، وهو راجع إلى الأوّل . نادٍ : مجلس . رحيب : واسع . محتو : مشتمل . نحيب : بكاء . ولجت : دخلت . غابة الجمع : وسط الناس، وأصل الغابة الشجر الملتفّ يغيب فيه مَنْ يدخله . لأسبُر : لأفتّش ، وأراد دخلت بين الناس لأجرّب وأعرف ما الذى أبكاهم وجلب دموعهم . ويروى، «مَحْلبة» بالحاء ،وهى من الحلْب ، يقال: انحلبت عينه ، إذا سالت بالدمع . بُهْرة : وسط . شَخْت : دقيق ورقيق ، والشَّخْت : الحطب الرقيق . أهْبة السياحة : آلة العبادة، وهى مثل العصا وركوة الماء وثياب الصوف وغير ذلك . يطبع الأسجاع، أى يرتبها ويصنعها ، تقول: طبعت الدرهم والسيف إذا صنعتهما ، وطبعت الكتاب إذا ختمته، وكانت الملوك تكتب فى فصوص خواتمها « لا إله إلا الله » و « الملك لله » وتطبع بذلك كتبها، وهذا المعنى أليق بطبع الأسجاع، أى يزيّنها ويختمها بجواهر كلامه ، ومن روى «لجواهر » باللام فعلى « يصنعها » لا غير ، والتفسير على الروايتين أخذته عن أبى ذرّ . والأسجاع الكلام المقفّر، له قافية كقافية الشعر ، وكان من كلام الكهّان، وهذه الموعظة التى فى المقامة من الأسجاع ، وسجعت الحمامة ، إذا غنّت على طريقة واحدة . يقرع : يضرب. الأسماع : الآذان . زواجر : نواهٍ ، وزجره : نهاه وانتهره . أحاطت : حلّقت : أخلاط : أصناف مختلطون. الزُّمَر : الجماعات. الهالة : الدارة حول القمر من نوره، والطّفاوة: الدارة حول الشمس، والساهور : هو غلاف القمر الذى يستتر فيه ما نقص منه. الأكمام : جمع كِمّ ،وهو الغلاف الذى ينشقّ عن الثمر ويحيط به. وسُمِّىَ كِمًّا لأنه يستر ما تحته، والأكمام : جمع قليل ، والكثير كمام . والثمر حمل الأشجار . دلفت : قربت ، ودلف الشيخ فى مشيته، إذا أسرع من ضعف فقارب خطوه. اقتبس من فوائده :

التمس وطلب أخذها واكتسابها . والفرائد : شذور الذهب تفصل مابين الجوهر. خبّ فى مجاله : أخذ فى كلامه ، والخبّ عدوٌ سهل، وهو الذى تسميه العامة السير، وفرس مسيار . والمجال للخيل : موضع تصرّفها وجريها . هدرت : صوّتت . شقاشق : جمع شقشقة، وهى النُّفاخة يخرجها فحلُ الإبل من حلقه عند هياجه ورغائه، ويرجع فيها هديره ؛ شبّه صوت الواعظ حين يرفعه ويزجر به الناس بصوت البعير يهيج ويتابع الهدير ، قال الأخطل :

إذا هَدَرَتْ شقاشقه ونَشْبَتْ لَهُ الأظْفَار تُرْكَ له الهُدَارُ[1]

أراد: نَشِبَتْ وتُرِكَ ، فخفّف .

* * *

أَيُّهَا السَّادِرُ فى غُلَوَائِهِ ، السَّادِلُ ثَوْبَ خُيَلَائِهِ ، الْجَامِحُ فى جَهَالَاتِهِ ، الْجَانِحُ إلى خُزَعْبَلَاتِهِ . . . إلاَمَ تَسْتَمِرُّ عَلَى غَيِّكَ ، وَتَسْتَمْرِئُ مَرْعَى بَغْيِكَ ! وَحَتَّامَ تَتَنَاهَى فى زَهْوِكَ ، وَلاَ تَنْتَهِى عَنْ لَهْوِكَ !

* * *

السَّادر : الراكب هواه ، لا يردّه شىء استطالةً وبغياً ، ويقال للذى يطيل الجلوس فى الشمس حتى يتحيَّر بصره: قد سدَر فهو سادر . فى غلوائه: فى ارتفاعه للشرِّ ولجاجه فيه ، وهو من غَلا يغلو فى الأمر ، إذا جاز الحدّ؛ فيقول: يأيُّها الأعمى الكثير اللَّجاج فى ركوب المعاصى؛ هلَّا نظرتَ بعين البصيرة، ورجعت عمَّا أنت عليه من الضلال ! السَّادل : المرخى ، خُيَلائه : كبره . الجامح : الجارى إلى غير

(١) ملحق ديوانه ٣٥٨ مما نقله عن الشريشى .

غاية ، وقد جمح الفرس إذا أكبّ رأسه، وجرى فى غير قصد ، فيريد أنه أكثر الفساد حتى جرى منه فى غير طريق . الجانح : المائل . الخزعبلات : الأباطيل ، وهو ما يتراءى للإنسان فى نومه من الخيال . تستمرّ : تدوم فى زورك . غيّك : ضلالك . تستمرئ : تستطيب من المرىء ، وهو ما يُلتذ به من الطعام . بغيك : ظلمك . تتناهى: تبلغ النهاية ، ونهاية الشىء ، آخره . زَهْوك : كِبْرك وعجبك. اللهو : ما يشغل عن الخير من أنواع الطرب .

[نبذ من أقوال الشعراء فى ذم الكبر]

وقال القاضى أبو جعفر[1] بن عمر فى ذمّ الكِبْر وما يتعلّق به :

وَلَا تُنْسَبْ إلى كِبْرٍ فهذا ... أبوكَ التُّرب يَخْفِضُك انْتِسابَا
ولا تصحبْ أخا كِبْرٍ وقدِّم ... على النَّفس الأعادِىَ والصِّحابَا
ولا تحبب محاباةً بمدحٍ ... كفى بالمرء حُوباً أن يُحابَى
وحاذِرْ أن تُرى فى القوْمِ رأساً ... ولا تنس الذّنوب وكن ذُنابى[2]
تراباً كن هنا فعساك ألّا ... تَمَنَّى أن تكون غداً تُرابَا

وقال أبو نواس :

حَذِّرْتُكَ الكِبْرَ لا يغشاكَ مِيسَمُه ... فإنّه مابسٌ نازعتَه اللهَ[2]
يابؤسَ جلْدٍ على جَوْفٍ مُجوَّفُهُ ... يحوِى مقاذِير إن كلمتَه تاهَا[3]
يرى عليك له فضلاً يبين به ... إن نالَ فى العاجل السلطان والجاهَا
إنى لأمقتُ نفسِى عند نخوتها ... فكيف آمنُ مقتَ الله إيّاهَا

(١) ط : « ابو حفص » ، وما أثبتة من ا »
(٢) الدنابى: أذناب الناس .
(٣) رواية الديوان ١٩٧ :
يابؤسَ جلدٍ على عظمٍ مخرَّقُهُ ... فيه الخروق إذا كلّمْته تاهَا

وقال أبو العتاهية :

عجبتُ للإنسان فى فخرِه وهو غداً فى قبره يُقْبَرُ[1]
ما بالُ مَنْ أوّلُهُ نُطفةٌ وجِيفةٌ آخره يفخَرُ !
أصبح لا يملك تقديمَ ما يرجو ولا تأخيرَ ما يحذَرُ

* * *

تبارزُ بمَعْصِيَتِكَ ، مالكَ ناصيتِكَ ، وتجترئُ بقُبْحِ سيرَتِكَ ، على عالمِ سَرِيرَتِكَ ، وتتوارى عَنْ قَرِيبِكَ ، وأنتَ بمَرْأًى رَقِيبِكَ ، وَتَسْتَخْفِى من مَمْلُوكِكَ ، وَمَا تَخْفَى خَافِيَةٌ عَلَى مَلِيكِكَ .

أَتَظُنُّ أَنْ ستَنْفَعُكَ حَالُكَ إذا آنَ ارْتِحَالُكَ ! أَوْ يُنقِذُكَ مَالُكَ، حِينَ تُوبِقُكَ أَعْمَالُكَ ! أَوْ يُغْنِى عَنْكَ نَدَمُكَ ، إذَا زَلَّتْ قَدَمُكَ! أَوْ يَعْطِفُ عَلَيْكَ مَعْشَرُكَ ، يَوْمَ يَضُمُّكَ مَحْشَرُكَ !

* * *

قوله: « تبارز »، أى تكاشف وتقابل. والبارز: الظاهر المنكشف. والناصية: شَعْر مقدم الرأس. تجترئ: تقدم وتشجع. والجرىء: الشجاع المِقْدَام. سيرتك: عادتك ، وجمعها سِيَر وهى ما يعامل به الناس من خير أو شرّ ، وتقول : سرت سِيرَةً من خير أو شرّ ، إذا أحدثتها فعمِل بها الناس بعدك ، فصارت عادةً لهم ، ولذلك فسرنا السيرة بالعادة حيث وقعت، وأصل السِّيرة هيئة مِن السَّيْر، وذلك أنك تقول : جلس فلان جَلْسَةً بالفتح ، وهى المرّة الواحدة من جلوسه ، فإذا

(١) ديوانه ١٠٣ ، ورواية صدره فيه : « ما احمق الإنسان فى فخره » .

كسرت الجيم فهى هيئة جلوسه، ومثله ركبَ رَكبَة، والرِّكبة هيئة ركوبه، وتقول: سار هذا الفعل سِيرة، والسِّيرة بالكسر: هيئة سيره فى الناس من حسن أو قبح أو صواب أو خطأ، وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم: هيئة أفعاله حيث كانت. تتوارى: تستتر. بمرأى من رقيبك، أى بمنظر ربّك أو بحيث يراك، ورقيب الشيء: حافظه وحارسه. مليكك: مالكك، وأراد أنّ الإنسان إذا خلا بريبة، استتر بها عن أخيه وعبده حياء منهما، ولا يستحيي من ربّه الذى يطّلع على معاصيه، ولا يخفى عليه خافية، وأشار إلى قوله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ . . . ﴾ الآية، وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه:

إن كنت تعلم أن الله يا عمرُ ... يرى ويسمع ما يأتى وما تذرُ
وأنت فى غفلةٍ من ذاك تركبُ ما ... نهاك عنه، فأين الخوف والحذر!
تُجاهر الله إقداماً عليه، ومِنْ ... جُهّالِ النّاس تستحيى وتعتذرُ

وقال نابغة بنى شيبان:

إن من يركب الفواحش سِرًّا ... حين يخلو بسرِّه غير خالِ[1]
كيف يخلو وعنده كاتباه ... شاهداه وربُّه ذو الجلالِ![2]

وقال أبو نواس:

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقُلْ ... خلوتُ، ولكنْ قل علىَّ رقيبُ[3]
ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعةً ... ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيبُ
لهونا لعمر الله حتى تراكمتْ[4] ... ذنوبٌ على آثارهنَّ ذنوبُ

(١) ديوانه ٦٤.
(٢) الديوان: «ذو المحال».
(٣) ديوانه ٢٠١.
(٤) رواية الديوان: «لهونا بعمر طال حتى تراددت».

حالك : عزّتك ومالك . آن : حان وقرب . ارتحالك : انتقالك . توبقك : تهلكك ، يقال : أَوْبَقَتْه الذنوب ، أهلكته فوبَق ، أى هلك ووبقَ أيضاً . وقال أعشى هَمْدان :

أستغفرُ الله أعمالِي الَّتي سلفتْ ... مِنْ عثْرةٍ إن يعاقبْني بها أَبِق

زلّت : زلقت . معشرك : قومك . محشرك : موضعك الذى تُحشَر إليه .

* * *

هَلاَّ انْتَهَجْتَ مَحَجَّةَ اهْتِدَائِكَ ، وَعَجَّلْتَ مُعَالَجَةَ دَائِكَ ، وَفَلَلْتَ شباة اعْتِدائِكَ ، وَقَدَعْتَ نَفْسَكَ فَهِيَ أَكْبَرُ أَعْدَائِكَ !

أَمَا الحِمامُ مِيعَادُكَ فَمَا إِعْدَادُكَ ! وَبِالْمَشِيبِ إِنْذَارُكَ ، فَمَا أَعْذَارُكَ ، وَفِي اللَّحْدِ مَقِيلُكَ ، فَمَا قِيلُكَ ! وَإِلَى اللهِ مَصِيرُكَ فَمَنْ نصيرُكَ ! طَالَمَا أَيْقَظَكَ الدَّهْرُ فتناعَسْتَ ، وَجَذَبَكَ الْوَعْظُ فتقاعَسْتَ ، وَتَجَلَّتْ لَكَ الْعِبَرُ فَتَعَامَيْتَ ، وَحَصْحَصَ لَكَ الحقُّ فَتَمَارَيْتَ ، وَأَذْكَرَكَ الْمَوْتُ فتناسَيتَ ، وَأَمْكَنَكَ أن تُوَاسِيَ فَمَا آسَيْتَ .

* * *

انتهجت : ركبت . والنَّهج المنهَج والمنْهاج : الطريق الواضح . محجَّة : طريق ، من حَجَّه يحُجَّه ، إذا قصده . اهتدائك : استقامتك . معالجة : مداواة . فَلَلْت : كسَرْت . شَباة : حدّ . اعتدائك : جورك وظلمك . قَدَعْت : كففت

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « ليس عدوّك الذى إن قتلتَه كان لك نوراً ، وإن قتلك دخلت الجنّة ، ولكن أعدى عدوّك نفسُك التى بين جنبيك » . قال الأصمعى : كنّا بطريق مكة فى بعض المنازل ، إذ وقفت علينا أعرابيّة فقالت : أطعمونا ممّا أطعمكم الله ، فناولها بعضُ القوم شيئاً فقالت له : كَبَتَ الله لك كل عدوّ لك إلّا نفسَك .

قوله : « أما » : حرف إخبار[1] واستفتاح كألا . الحِمام : الموت ، من حُمّ الأمر ، قضى . الميعاد : الموعد . ما إعدادك : ما استعددت له ، والإعداد مصدر أعدَّ للأمر إذا هيّأ له ما يحتاج إليه من عُدَّة ، يقول : الموت هو الذى وُعِدت به أن يأتيك ولا بدّ ، فاستعدّ له من أفعال البر .

وللفقيه الزاهد أبى عمران موسى بن عمران :

يا صاح فى الموتِ لناحكمةٌ ... بالغةٌ لو أننا ننتفعْ
فاعملْ له قبل مفاجاتِه ... ويَحْصِد الزارعُ ما قد زرعْ
لا حيلةً تُنْجِيك منه ولا ... ذو وزَرٍ عنه به يمتنعْ
كم أُممٍ أفناهُمُ قبلنا ... وشمل قومٍ شتَّه فانصدعْ

ولحبيب :

قد أيْقَنَتْ بالموت نفسى لأننى ... رأيتُ المنايا يَخْتَرِمْنَ حياتيا[2]
فيا ليْتَ أنّى بعد موتى ومبعَثى ... أكونُ رُفاتاً لا علىّ ولاليَا

المشيب : الشيب ، يقال : شاب رأسُه شيباً أو مشيبا . إنذارك : إعلامك ، وأنذرك : أعلمك ممّا تحذر وخوّفك منه ، وأراد قوله تعالى : ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾[3] ، وانظر هذا المعنى فى الحادية والأربعين مستوفًى نظماً ونثراً .

(١) قوله : « أما : حرف إخبار . . . » الظاهر أن هذا استفهام تقريرى — حاشية ط .
(٢) ديوانه ٤٨٤ . (٣) سورة فاطر ٣٧ .

أعذارك: جمع عذر ، والإعذار بكسر الهمزة مصدر أعذر فى طلب الحاجة إذا بالغ فيها .قال ابن السَّبْتيّ وجنّس قوانيه :

الشَّيْبُ فى مفرقَىَّ حَـلاّ وعَقْد عهد المِلاح حُلَّا
وكانَ كالآبنُوسِ رأسِى فاحتـــلّه عاجُه فحلّا
وحَرّمَتْ وصْلِى الغوانى وقُلْنَ قَتْلُ العميد حَلَّا

اللحد : حفرة فى جانب القبر ، ولحَدَ الميت وألحده: شقّ له فى جانب القبر. وأصل اللفظة الميل .ومقيلك : مقامك ،وأصله النوم فى القائلة . قيلُك : حديثك المَقُول وحجّتك الواضحة ، والقول مصدر كالطحْن والذَّبح ، والقيل : اسم للمَقُول كالطِّحْن بالكسر : اسم للدقيق المطحون، والذِّبْح اسم للمذبوح . يعقوب : القال والقيل اسمان لا مصدران . ابن سيده : القيل فى الأصل مصدر ، وحكى الفارسىّ قاله قولا وقيلا،مثل ذكرَه ذكراً ، والقال يجوز أن يكون مصدراً ، فإنّ سيبويه حكى :ذامَه ذاماً وعابه عاباً،إلا أنه لم ينصّ على القال . مصيرك:رجوعك . نصير : معدول عن ناصر للمبالغة . تناعست ، أى أظهرت أنك ناعس . جَذَبك : قادك بعنف ، ويقال:جذب،وجَبذ وهى أقلّ من الأولى،وصحّفت العامة هذه الثانية وقالوا :«جَبَد» بدال غير منقوطة.تقاعست : تأخّرت وتصعّبت وتشبّهت بالأقعس ؛ وهو الذى دخل ظهره وخرج صدره ، أى قادك الوعظ إلى الخير فلم تنقَدْ له ، والعرب تقول : عزة قَعْساء كأنها تتقعّس عن الذلة . تجلّت : ظهرت . والعِبَر : ما يُتَخوّف ويُتّعظ به عند رؤيته .حصحص : تبيّن ، من الحَصّ وهو ذهاب الشعر فيتبيّن ما تحته ، والحاء الثانية مبدلة من صاد ثالثة ، وإذا اجتمع الأمثال فى مثل هذا ، أبدلت العرب من الحرف الأوسط حرفاً من جنس الحرف السابق ، ومثله حثحثت ورقرقت ،أصلهما حثثت ورقّقت ؛هذا قول الكوفيين، وقال البصريون:

هما لغتان تقاربتا ، إذ لا يبدل الحرف إلا من مثله أو من مقاربه فى المخرج ، وهذه الحروف متباعدة لا يصحّ إبدالها . ماريت : شككت : تؤاسى : تعطى .

* * *

تُؤْثِرُ فَلْساً تُوعِيهِ ، على ذِكْرٍ تَعِيهِ ، وَتَخْتَارُ قَصْرًا تُعْلِيهِ ، عَلَى بِرٍّ تُولِيهِ ، وَتَرْغَبُ عَنْ هَادٍ تَسْتَهْدِيهِ ، إلى زَادٍ تَسْتَهْدِيهِ ، وَتُغَلِّبُ حُبَّ ثوبٍ تَشْتَهِيهِ ، على ثوابِ تَشْتَرِيهِ .

يواقيت الصَّلاتِ ، أَعْلَقْ بِقَلْبِكَ مِنْ مَوَاقِيتِ الصَّلاَةِ ، وَمُغَالاة الصَّدُقاتِ ، آثَرُ عِنْدَكَ مِنْ مُوَالاةِ الصَّدَقاتِ ، وَصِحَافُ الألوان ، أشْهَى إِلَيْكَ من صَحَائِفِ الأَذْيانِ ، وَدُعَابَةُ الأَقْرَانِ ، آنَسُ لَكَ مِنْ تِلاَوَةِ الْقُرآنِ .

* * *

تؤثر : تفضّل . توعيه : تجعله فى وعاء . برّ : إحسان . تُوليه : تعطيه وتلصقه بمن تبرّه . هادٍ : مرشد لطريق الخير . ترغب عنه ، أى تتركه . تستهديه ، أى تسترشده وتسأله أن يهديك إلى الخير ، وتستهديه الثانية : تطلب أن يهدى لك هدية . يقول : تترك مَنْ يهديك إلى طريق الخير ، فلا تسأله الهداية ، وتقصد أعراض الدنيا من الأطعمة وغيرها ، وترغب أن تعطى منها هدية ، قال الزّاهد ابن عمران :

توقَّ وحاذِرْ من قَبُولِ هديَّةٍ ... وإن جاءكَ فيها الحديثُ المرغَّبُ
فقد حدثَتْ بعد الرّسولِ حوادثٌ ... تحذِّرنا منها ، وعنها ترغِّبُ
وكانت هديّاتُ الأوائل قبلنا ... تؤلِّف فيما بينهـــم وتحبِّبُ
فعادَتْ بلايا يُسرِعُ المنُّ نحوها ... تفـــرّق فيما بيننـــا وتجنِّبُ

وله فى مثله :

احذَرْ هدَايَا النَّاس تأمن المِـــنّ بها أو قولَ واشٍ يَشِى
فقلّ مَنْ يهـديك إلّا امرُؤٌ من رَغْبةٍ أو رَهْبَـةٍ قَدْ حُشِى
التبس الأمر فـــلا تقدمن وأخشَ مقام الله فيمن خَشِى
كانت هَدَايا ثم عادت رِشًـا وفى الرِّشا الهُلْكُ لِمَنْ يرْتَشِى
حَذَّرنا منهـا نبيّ الهُـــدَى إذْ لَعَنَ الرَّاشِىَ والمُـــرْتَشِى

الثواب : المكافأة على الفعل ، وأراد به مايجازى الله به عباده على إحسانه من الأجر ، وهو من ثاب يثوب إذا رجع ، وأثبْتُ الرجل : أعطيته الثواب ، وهو المكافأة على فعله . قوله « يواقيت » : أى جواهر . الصِّلات : العطايا . أعلق : ألصق . مواقيت : أوقات ، وهى جمع ميقات .

* * *

[من لطائف التجنيس]

ومما يستحسن من تجنيس الصِّلات والصَّلاة ، حكاية أحمد بن المدبّر ـ وكان إذا مدحه شاعر ولم يرض شعره ، قال لغلامه : امض به إلى المسجد فلا تفارقه حتى يصلّى مائة ركعة ، ثم خلِّه ، فتحاماه الشعراء إلا الأفراد المجيدين ـ فجاء الحسين بن عبدالرحمن البصرىّ المعروف بالجَمَل ، فاستأذنه فى النشيد ، فقال : أعرفتَ الشرط ؟ قال : نعم ، وأنشد :

أردْنَا فى أبى حسن مديحـــاً كما بالمدح تُنْتَجَـــعُ الوُلَاة
فقلنا أكرمُ الثقلين طُـــرّاً ومن كفّاه دِجْـــلَةُ والفُرَاتُ
فقالوا يقبل المدحاتِ لـــكنْ جَـــوائزه على المدحِ الصَّلاةُ
فقلت لهم : وما تغنى صلاتى عِيالى ، إنَّمـــا تُغْنِى الزَّكاةُ !

فأمّا إذ أبى إلاّ صَـــلاتى وعاقتنى الهموم الشّاغِـــلاتُ
فيأمر لى بكسر الصّاد منها لَعَلّى أن تنشّطَنى الصّـــلاتُ
فيصلحُ لى على هَذِى حيـاتى ويصلـــحُ لى على هَذِى المماتُ

فضحك واستظرفه ،وأمر له بمائة دينار،وقال : من أين أخذت هذا ؟ قال: من قول أبى تمام :

هنَّ الحَمـامُ فإن كَسرْتَ عِيافةً مِنْ حائِهن فإنّهن حِمـامُ[1]

* * *

قوله :«مغالاة الصَّدُقات » ، أى الزيادة فى المهور ، وغاليت : زدت فى ثمن السِّلعة وردتها غالية ، والصَّدُقات واحدتها صَدُقة وهى الصّداق،قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «من يُمْنِ المرأة تيسير صداقها وخِطبتها »، قال عروة :وأنا أقول : من أول شؤمها أن يكْثُر صداقها . آثر : أفضل وأكثر أَثَرَةً . موالاة:متابعة . صحائف : جمع صحيفة، وهى الورقة يُكتب فيها من الرّقّ والقرطاس. دُعابة : مزاح، وفى فلان دُعابة،وتداعب الرّجلان :تمازحا، وفى الحديث: «كانت فيه صلى الله عليه وسلم دعابة»، وفى حديث جابر رضى الله عنه:« هلّا بكراً تداعبها وتداعبك! ». الأقران : الأصحاب والأمثال . تلاوة : قراءة ، وتلوته : قرأته ، واختلفوا فى اشتقاق القرآن،فقال أبو عبيدة: سُمِّىَ قرآناً لأنه يجمع السور ويضمّها،قال الله تعالى: ﴿فإذا قَرأْناهُ فاتبَعْ قُرْآنَه﴾[3] أى إذا جمعناك شيئاً فضمّه واعمل به ، وقال قطرب : سُمِّىَ قرآناً لأن القارئ يُظهره ويبينه ويلقيه مِن فِيه، من قول العرب: ما قرأَت الناقة سلاً قطّ ،أى ما رمت به .وقال النبى صلى الله عليه وسلم :« إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد » ،قالوا : يارسول الله . ما جلاؤها ؟ قال : « قراءة القرآن » .

(١) ديوانه ٢٧٩ .
(٢) نقله فى النهاية لابن الأثير ٢ : ١١٨
(٣) سورة القيامة ١٨ .

تَأْمُرُ بِالْعُرْفِ وَتَنْتَهِكُ حِمَاهُ ، وَتَحْمِي عَنِ النُّكْرِ وَلاَ تَتَحَامَاهُ ، وَتُزَحْزِحُ عَنِ الظُّلْمِ ثُمَّ تَغْشَاهُ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاه . ثُمَّ أَنْشَدَ :

تَبًّا لِطَالِبِ دُنْيَا ... تَنْمِي إِلَيْهَا انْصِبَابَهْ
مَا يَسْتَفِيقُ غَرَامًا ... بِهَا وَفَرْطَ صَبَابَهْ
وَلَوْ دَرَى لَكَفَاهُ ... مِمَّا يَرُومُ صُبَابَهْ

* * *

العرف ، أى المعروف . تنتهك : تبالغ فى تناوله بما لا يجوز . حِماه : ما حُمى منه ومنع ، وأصل الحِمَى موضع العشب يحميه الرجل لإبله . وانتهاكه : استئصال عشبه بالرعى ، ونهكت الجلد وانتهكته ، إذا أخذته بشفرة حتى يرق ويضعف . النُّكر : المنكر . تتحاماه : تتباعد عنه . تُزحزح عن الظلم : تُنحَّى عنه غيرك وتزيله . وتغشاه : تأتيه وتباشره . تخشى : تخاف . وقال ذو الرمّة فى هذا المعنى ، وهو أحسن شعرٍ قاله :

يارَبِّ قد أسرفتْ نفسِى وقد علمتْ ... علماً يقينا لقد أحصيتَ آثارى
يامخرج الرُّوح من نفسِى إذا احتضرت ... وفارجَ الكرب زحْزِحْنِى عن النَّار (٢)

دعا لنفسه أن يكون من الفائزين ، لقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (١) .

قوله : « تبًّا » ، أى خسراناً وهلاكاً ، وتبّت يده : خسرت . قال تعالى : ﴿ وما زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ (٣) ، أى غير خسار وهلاك ، قال الشاعر :

(١) ملحق ديوانه ص ٦٦٧ .
(٢) سورة آل عمران ١٨٥ .
(٣) سورة هود ص ١٠١ .

عَرادَةُ من بقيَّة قومِ لوطٍ ألا تبًّا لما عملوا تَبَابَا![1]

ثَنَى : عطف وردّ . انصبابه : جريه . يستفيق : يستريح ، وأفاق من المرض : استراح . غراماً : شدّة حبّ لازم له غير مفارق ، ومنه سُمِّيَ الغريم لملازمته التقاضي وإلحاحه فيه ؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾[2] أى مُلِحًّا دائما ، ومنه ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾[3] ، وفلان مغرم بالنساء: يحبّهن ويلازمهنّ ، وقال حاتم :

فما أَكْلَةٌ إن نلتها بغنيمةٍ ولا جوعة إن جعتها بغرام

أى بهلاك وملازمة .

فرط صبابة : شدة شوق ومجاوزة حدّ فى ذلك . يروم : يطلب . صبابة . بقيّة الماء .

* * *

[نبذ من الأشعار فى ذمّ الدنيا]

وهذا الشعر مستحسن القوافى ، ومثله فى ذلك قول الزاهد ابن عمران[4] ، وكثيراً ما كان يستمدّ فى شعره من أدب المقامات :

تبًّا لذِى جهل دعَا لمبرَّةٍ وأجبتُه بِرًّا به فأذاعَهَا
مَنًّا وقد كَافَأْتُه بهباتِهِ وذخرتُها عندى له ، فأضاعهَا
فَاقْلَ اللئامَ من الرجال ولا تجبْ مَهْمَا دَعَوْكَ وجَنِّبَنْ أوْضَاعهَا

وقال آخر :

(١) لجرير ، ٨٣ ؛ وهو عرادة النمرى راوية الراعى ، وقبله :
أتانى عن عرادَة قولُ سوءٍ فلا وأبى عَرادَة ما أصابا
(٢) سورة الفرقان ٦٥ .
(٣) سورة الواقعة ٦٦ .
(٤) هو أبو عمران موسى بن عمران المارتلى الإشبيلى ، ذكره ابن سعيد فى المغرب ١ : ٤٠٦ ، وأورد بعض شعره .

يامن يضيِّع عُمْرَهُ متمادياً فى اللَّهْوِ أمْسِكْ
واعلم بأنَّك لامحا لَةَ ذاهبٌ كذهابِ أمْسِكْ

ولمنصور الفقيه فى الشعر المردف[1] :

إذا كُنْتَ تزعمُ أنَّ الفِرَاقَ فراقُ الحياةِ قريبٌ قريبْ
وأنَّ المقدَّم ما لا يفوت على مايفوت مصيبٌ مصيبْ
وأنتَ على ذاك لا ترعَوِى فأمرُكَ عندِى عجيبٌ عجيبْ

وقال القاضى أبو حفص عمر فى معنى شعر الحريرىِّ فى ذم الدنيا :

بارَا كِضًا فى طلابِ دنْيا ليس لمن تَصْرَعُ انتعاشُ
لم تُخشَ نارٌ هَوَى لَظَاهَا بمن له نحوَها انحياشُ
أعذر منكَ الفرَاش حالاً علمت ما يجهل الفراشُ
نطلبها لا تنـــام عين عنها ولا يستقرُّ جاش
مَنْ لك بالرِّىّ من شرابٍ يشتدّ من شربه العطاشُ
دَعْها فطلَّابُهـــا رِعاعٌ طاشت بألبابهم فطاشُوا
لم يَرِدوها فهم رِواءٌ وواردُوها هُمُ العِطَاشُ
فاظمأ لتروَى ، وكن كقومٍ سُقوا بها غِبَّةً فعاشُوا[2]
كأنَّ آمالَنـا ظبـاء ونحن من حَيرةٍ خِدَاشُ
إن لآمالنـــا انبسـاطاً به لأعمارنا انكماشُ
كأنّ آجالنـا صـــقورٌ ونحن من تحتها خَشَاشُ

ولابن الرومى رحمه الله :

لَعَمْرُك ما الدُّنيا بدار إقامةٍ إذا زال عن عين اللبيب غطاؤُهَا

(١) الردف فى الشعر : حرف ساكن فى حروف المد . واللين يقع قبل حرف الروى ، ليس بينهما شىء ، فإن كان ألفاً لم يجز معها غيرها ، وإن كان واواً جاز معه الياء . وانظر اللسان.
(٢) ب : « ماتوا بها عفة فعاشوا » .

فكيف بقاء النّاس فيها وإنما يُنال بأسباب الفناء بقاؤُهَا !

وقال آخر :

ومن يحمد الدنيا لعيشٍ يسرُّه فسوف لَعَمْرِى عن قريب يلومُها
إذا أدبرتْ كانتْ على المرء حسرةً وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

ولابن سارة رحمه الله تعالى :

بنُو الدُّنيا بجهل عَظَّمُوهَا فجلَّتْ عندهمْ وهى الحقيرَهْ[1]
يُهارش بعضُهم بعضاً عليها مهارشة الكِلاب على العقيرهْ

* * *

ثمَّ إنَّهُ لَبَّدَ عَجَاجَتَهُ، وَغَيَّضَ مُجَاجَتَهُ، واعْتَضَدَ شَكْوَتَهُ. وَتَأَبَّطَ هِرَاوَتَهُ. فَلَمَّا رَنَتِ الْجَمَاعَةُ إلى تحفُّزِهِ، وَرَأَتْ تأهُّبَهُ لِمُزَايَلَةِ مَرْكَزِهِ، أَدْخَلَ كلٌّ مِنْهُمْ يَدَهُ فى جَيْبِهِ، فأَفْعَمَ لَهُ سَجْلاً مِنْ سَيْبِهِ، وَقَالَ: اصْرِفْ هَذا فى نَفَقَتِكَ، أَوْ فَرِّقْهُ عَلَى رُفْقَتِكَ. فقبلَهُ مِنْهُمْ مُغْضِياً، وَانْثَنَى عَنْهُمْ مُثْنِياً، وَجَعَلَ يُوَدِّعُ مَنْ يُشَيِّعُهُ، لِيَخْفَى عَلَيْهِ مَهْيَعُهُ، وَيُسَرِّبُ مَنْ يَتْبَعُهُ، لكى يُجْهَلَ مَرْبَعُهُ.

* * *

قوله : «ثم إنه لبّد عجاجته»، أى سكّن غَبْرته المرتفعة حتى لصقت بالأرض. غَيّض: جفف. المُجَاجة : ما يُلْقى مِنْ فيه. وقد مجَّ الرجل ريقه، إذا سال من حمق أو كِبَر. وأراد بلبّد عجاجته، قطع كلامه الذى كان قد استرسل، وأخذه من قول سليمان بن عبد الملك، وقد تكلّم وفد بين يديه، فلم يصنعوا شيئاً،

(١) قلائد العقيان ٣٠١ .

وتكلّم بعدهم رجل قبيح المنظر فأبلغ ، فقال سليمان : كأنّ كلامه بعد كلامهم سحابة لبّدت عجاجا .

وأراد بـ « فيّض مُجاجته » ما كان يسيل من عينيه وأنفه عند البكاء . اعْتَضَدَها : جعلها تحت عَضُدِه . والشكوة : ركوة الماء تُصْنَع من جلد الثور أو الخروف. وتأبَّطها: جعلها تحت إبطه. هَراوته : عصاه . رنت: نظرت. تحفّزه : تهيّؤه وعجلته للانصراف ، وتحفَّز وانحفز ، إذا كان جالساً على عقبيه متهيّأ للقيام . تأهّبه : استعداده . مزايله: مفارقه . مركزه : موضعه الذى قام به . أفعم : ملأ ، ونعمت الشيء فعماً : ملأته . سجلا: دلوا . سيبه : عطاؤه ، معناه وهَب له نصيباً من عطائه . رفقتك : أصحابك . مغضيا : مستحييا ، وأصل « أغضى » كفّ بصره وضمّ جفنيه . انثنى : رجع وانعطف عن طريقه . مهيعه : طريقه البيّن. يسرّب: يفرّق ، فكأنه «تفعّل» من السَّرَب وهو الطريق ، كأنه يردّهم عن تشييعه فى طرق مختلفة ، أو يكون من لفظ السَّرَب ، وهو الجحْر ، فكأنه يغيّبهم عنه حيث يقصد تعمية طريقه عليهم ، أو يكون من لفظ السارب وهو الذاهب فى الأرض ، وقد سرب سروباً ، فكأنه يذهبُهم فى كلّ ناحية ليجهل مكانه . مربعه : منزله فى الرّبيع خاصة . والمربع : المنزل فى كل وقت ؛ من ربعت بالمكان ، أقمت به .

* * *

قال الحارث بن هَمَّام : فاتّبَعْتُهُ مُوَارِياً عَنْهُ عِيانِى ، وَقَفَوْتُ إِثْرَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَرَانِى ؛ حَتَّى انْتَهَى إِلى مَغَارَة ، فَانْسَابَ فِيهَا عَلَى غَرَارَةٍ ، فَأَمْهَلْتُهُ رَيْثَمَا خَلَعَ نَعْلَيْهِ ، وَغَسَلَ رِجْلَيْهِ ، ثُمَّ هَجَمْتُ عَلَيْهِ ، فَوَجَدْتُه مُحَاذِياً لِتِلْمِيذٍ ، عَلَى خُبْزٍ سَمِيذٍ ، وَجَدِى حَنِيذٍ ،

وَقُبَّالَتَهُمَا خَابِيَةُ نَبِيذٍ ، فَقُلْتُ له : يَا هذا ، أَيَكُونُ ذَاكَ خَبَرَكَ ، وَهَذا مُخْبَرَكَ !

* * *

مواريًا : ساتراً . عيانى : شخصى ، أى تبعتُه مستخفياً بحيث لا يرانى . قفوْته : اتّبعته من جهةقفاه . انساب:دخل ، وأصلُ الانسياب ،جَرْى الحيَّة على وجه الأرض ،أو جَرْى الماء كذلك،ولا يكون الانسياب إلاعلىوجه الأرض ، لا يقال : انساب فى الجُحر ؛ حدّثنى به بعض مَنْ لقيت من أصحابنا ، وكان أضْبَط النّاس للسان العرب ، قال:وقول الحريرى:«انساب فيها»وهممنه، ولوقال: «انشام فيها» لكان أمثل ، يشبّهه بالسيف إذا وُضع فى غمده . غَرارة : غفلة . رَيْث : قدْر . هجمت عليه : دخلت عليه فجأة ، ومنه هجم عليه الحرّ ، وهجمتْ عينه :دخلت فى رأسه . محاذياً : ملاصقاً أو جالساً بحذائه . تلميذ : متعلّم الصنعة. حَنِيذ : مشوىّ ، وحنذَ اللحمَ حَنْذًا : شواه بحجارة محمّاة . نبيذ ، أراد به خمراً . خبرك ، أراد به أمرك الذى أنت عليه . مَخْبرك ، أى باطنك وما يختبَر منك .

[أبو نواس فى مجالس الوعظ]

ومما ينتظم فى هذا النمط حكاية أبى نواس حين رُئِىَ فى مجلس منصور ابن عمّار يبكى ، فظنّ النّاس أنه قد نَسَك ، فجعلوا يهنئونه ، ويقولون: نرجو لك من الله الخير ، فقال : أنا أهون على الله من ذلك ؛وليس كما تظنّون ، ولكن أبكى لبكاء ذلك الغزال ـ وغلام بالمجلس يبكى من وعظ منصور ـ ثم قال :

لم أبكِ فى مجلس منصورِ شوقاً إلى الجنّة والحورِ

لكن بكائى لبكا شادنٍ تقيه نفسى كلَّ محذُورِ
تنتسب الألسن فى وصفِهِ إلى مَدَى عَجْزٍ وتقصيرِ

وحضر أيضاً مجلس بعض القصاص ، فقالوا له : لعلّ الله قد أقبل بك! فقال : إنما حضرت لأجل هذا الغزال ، ثم قال :

خلّيانِي والْمعَاصِى وَدَعَا ذِكْرَ القِصَاصِ
واسقيانِي الخَمْرَ صِرْفاً فى أباريقِ الرَّصَاصِ
وعلى وجه غَزالٍ طائعٍ ليس بعاصِى
بين فتيانٍ كرامٍ قد تواصَوْا بالمعاصِى
وعلى الله ـ وإن أفـ ـرطتفى الذّنب ـ خلاصِى

* * *

فزفَرَ زفْرَةَ القَيْظِ ، وَكَادَ يَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ؛ وَلَمْ يَزَلْ يُحْمِلُقُ إِلَىَّ ، حَتَّى خِفْت أَنَ يَسْطُوَ عَلَىَّ . فَلَمَّا أن خَبَتْ نارُهُ ، وَتَوَارَى أُوَارُه ، أنشد :

لَبِسْتُ الخَمِيصَةَ أَبْغِي الخَبِيصَهْ
وَأَنْشبْتُ شِعْرِىَ فى كلِّ شِيصَهْ
وَصَيَّرْتُ وَعْظِيَ أُحْبُـــولةَ
أُرِيغُ القَنِيصَ بِها وَالْقَنِيصَهْ
وَأَلْجَأَنِى الدَّهْرُ حَتَّى وَلَجْـــ
ـتُ بِلُطْفِ احْتِيالى على اللَّيْثِ عِيصَهْ

عَلَى أَنَّنِي لَمْ أَهَبْ صرْفَهُ
وَلاَ نَبَضَتْ لِيَ مِنْـهُ فَرِيصَـهْ
وَلاَ شرعَتْ بِي على موردٍ
يُدَنِّسُ عِرْضِيَ نَفْسٌ حَرِيصَهْ
وَلَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ فى حُـكْمِهِ
لمَـا مَلَّك الْحُـكْمَ أَهْلَ النَّقِيصَهْ

* * *

قوله: « فزفر زفرة القيظ » ،الزفرة :تنفّس المهموم أوالمغتاظ ، والقيظ : شدّة الحرّ ، شبّه ما أبداه من شدّة الغيظ بوهَج الحرّ . يتميّز : يتقطع ويتفرّق. يحملق : يحدّ النظر ، والحملقة: نظر الغضبان، والحِلاق: باطن الجفن. يسطو :يصول ويتناولنى بالمكروه ، يقال : سطا عليه وبه، يسطو سَطْوًا وسطوة ، إذا قهرَه وأذلّه . خبت ناره : سكنت حدّة غيظه . توارى : تغطى واستتر . أُوارُه : لهبه ونار غيظه . والأوار : وَهَج النار . الخميصة : كساء فيه خطوط . وقال يعقوب وأبو عبيد : الخميصة : كساء مربّع أسوده علمان . الخبيصَة: نوع من الحلواء ، وتسميه عامتنا الخبيز، بالزاى ، وكنى به عن لذة العيش . الشِّصّ : حديدة معوجّة يصاد بها الحوت، وتسمّى الصنارة . شيصة : ثمرة رديئة ؛ ومِنْ مُلح قصاص البلدان ، أنّ أبا عبد الله الحوّاص كان يقول فى قصصه :إنّما الناس مثل التمر ، فيهم الشيص والبُرْنِيّ ، يارب اجعلنا بُرنيًّا ولا تجعلنا شِيصاً . وقال قاصٌّ آخر : إن فى الجنة لحم جدى ولحم خروف ،ولحم كلّ شىء بلا عظم مثل الشِّيص فى بلادنا بلا نوى، يريد أنه لا يحتقر شيئاً ؛ فكل ما اتّخذ له أخذه . أُحبولة :آلة يصاد بها . أريغ : أطلب ما يصعب أخذه ، كأنه يروغ من كذا ،وأصل راغ من كذا ،أى عدل عنه ورجع ،وهو يخفى رجوعه. قال الفرّاء :لا يقال للذى يرجع : راغ يروغ ، إلّا أن يكون مخفياً

لرجوعه، قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[1]، أى رجع إليهم يضربهم مخفياً لرجوعه، ومعنى «بالميمين» أى بيمينه الذى حلف فى قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾[2]، أو يريد باليمين القوة، وقال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ﴾[3]، أى رجع إليهم فى إخفاء منه لرجوعه. القنيص والقنيصة: الذكر والأنثى مما يصاد من الوحش، وهذا مثل، وإنما أراد ما يأخذه من الناس بالحيل. ألجأنى: أحوجنى. ولجت: دخلت. لطف: رقة وتلطف. عيصه: بيته، وأصله الشجر الملتف. واللّيث: الأسد. أهب: أخف. صرفه: تقلبه. نبضت: تحركت. فريصة: بضعة فى آخر الكتف تتحرك عند الفزع. شرعت: دخلت. وعلى: بمعنى «فى» نحو قولك: كان ذلك على عهد فلان، أى فى عهده. مورد موضع الماء. يدنّس: يوسخ ويعيب. عِرْضِى: ذكرى. نفس حريصة: كثيرة الرغبة والطمع. النقيصة: الخصلة القبيحة يفعلها الرجل فينقص بها.

وقال بعضهم:

غُضِّى عيونك يا عيونَ النَّرجسِ ... منكِ استحيْتُ بِأَنْ أُقبِّلَ مؤنسِى

نام الحبيبُ تَدَبَّلَتْ أجفـــانُه ... وعيونـكنّ شواخِصٌ لم تنعَسِ

فأجابنى تفاح صفحةِ خده ... بفصاحة من ألسن لم تُخْرَسِ

قَبِّلْ حبيبك ما اشتهيتَ فإنّ من ... عاداتنا كِتمانَ سِرّ المجـــالسِ

يارب إن قدَّرْتَهْ لمقبِّلٍ ... غيرى فللمِسْوَاكِ أَوْ للأَكْؤُسِ

ولئن قضيتَ لنا بصحبةِ ثالثٍ ... يارَبّ فلْتكُ شمعةٌ فى المجلس

ومن أحسن ما قيل فى الدهر، قول تميم بن المعز:

---

(١) سورة الصافات ٩٣

(٢) سورة الصافات ٩٣

(٣) سورة الأنبياء ٥٧

يا دهرُ ما أقساكَ من متلوّنٍ ... في حالتَيْك وما أقلَّك مُنْصِفَا[1]
أترُوح للنِّكس الجهولِ ممهداً ... وعَلَى اللَّبيبِ الحرّ سيفاً مُرْهَفَا![2]
وإذا صفوتَ كدَرتَ شيمة باخلٍ ... وإذا وفيت نَقَضْتَ أسباب الْوَفَا
لا أرتضيكَ وإن كَرُمْتَ لأنني ... أدرِي بأنَّك لا تَدُوم على الصَّفَا
زمنٌ إذا أعطى استردَّ عطاءه ... وإذا استقام بدا له فتحرَّفَا
ما قام خيرُك يا زمان بشَرِّهِ ... أوْلى بنا ما قلَّ منك وما كَفَى

إدريس بن اليمان [3] :

ماذا أقول لدنيا لو ظفرتُ بها ... أدَّبتُها غَضَباً للعلْم والأدَبِ
شَجًا من أقذية الأيام برّح بى ... بل بالعوالى وبالهندية القضب

* * *

ثم قَالَ لِي : ادْنُ فَكُلْ ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُمْ وَقُلْ .

فَالْتَفَتُّ إِلى تِلْمِيذِهِ وَقُلْتُ : عَزَمْتُ عَلَيْكَ بِمَنْ تَسْتَدْفِعُ بِهِ الأذَى ، لَتُخْبِرَنِّى مَنْ ذا ؟ فقال : هَذا أَبُو زيدٍ السَّرُوجِيّ ، سِرَاجُ الْغُرَباء ، وَتَاجُ الأدباء .

فانصرفتُ مِنْ حيث أتيتُ ، وقضيتُ الْعَجَبَ مِمَّا رأيتُ !

* * *

قوله : «ادن» ، أى اقرب . قل ، أى قل ماشئت. التلميذ: الخادم ، والجمع

(١) ديوانه ٢٧٤
(٢) النكس : الرجل الضعيف القصر عن غاية النجدة والكرم .
(٣) هو أبو على إدريس بن اليمانى العبدرى الأندلسى ، صاحب الأمداح الكثيرة للملوك الطوائف ، ذكره صاحب المغرب فى ١ : ٤٠٠ .

التلاميذ ، قال لبيد[١] :

* يَجلو التّلاميذ لؤلؤاً قَشِبَا *

أى يجلو التلاميذُ لؤلؤاً جديداً ، وطلبة العلم : تلاميذ شيخهم . الأذى : الضرر . سراج : مصباح، يريد أنه للغرباء مصباح يفخرون به ويهتدون بحيلته، وللأدباء تاج يتزيّنُون به ويضعونه فوق رءوسهم . انصرفت : رجعت . قضيت العجب ؛ أى أتممته ، كأنه قال : قضيت حاجتى ممّا رأيت . ويقال : قضى نحبَه من كذا ، أى بلغ مراده ، وقضى عليه القاضى ، أى قطع عليه ، والقاضى : القاطع للأمور المحكم لها ، وقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[٢] ، أى قطعهنّ وأحكم خلقهنّ ، ويكون «قضى» بمعنى «عمل».

(١) ديوانه ٣١ وصدره :

* فالماء يَجْلُو مُتونَهنَّ كَمَا *

(٢) سورة فصلت ١٢ .

المقامة الثانية وهي الحلوانية

حكى الحارثُ بن هَمَّام قال : كَلِفْتُ مُذْ مِيطَتْ عَنِّى التَّمَائِمُ ، وَنِيطَتْ بِيَ العَمَائِمُ ، بأنْ أَغْشَى مَعَانَ الأَدَبِ ، وَأُفْضِيَ إِلَيْهِ رِكَابَ الطَّلَبِ ، لأَعْلَقَ مِنْه بِمَا يَكُونُ لِي زِينَةً بَيْنَ الأَنَامِ ، وَمُزْنَةً عِنْدَ الأُوَامِ . وَكُنْتُ لِفَرْطِ اللَّهَجِ بِقَبَاسِهِ ، وَالطَّمَعِ فِى تَقَمُّصِ لِبَاسِهِ ، أُبَاحِثُ كلَّ مَنْ جَلَّ وَقَلَّ ، وَأَسْتَسْقِى الْوَبْلَ وَالطَّلَّ ، وَأَتَعَلَّلُ بِعَسَى وَلَعَلَّ .

* * *

كَلِفْت ، أى اشتدّ حُبّى ، والكَلَف : شدّة الحبّ والمبالغة فيه ، وفلان كَلِفٌ بفلان ، أى مبالغ فى محبّته . ومِيطَتْ وأميطت : أزيلت . التمائم : الأحراز . نيطت : عُلِّقَت ، وإذا بلغ الصبىّ الحلم عند العرب أزلوا الأحراز عن عنقه ، وألبس العمامة والإزار ، وقُلِّد السيف ، فأراد : أحببت مذ بلغتُ الحلم مجالس الأدباء . أغشى : أقصد وأدخل .

المعان : المنزل . أبو عبيد ، يقال : البصرة مَعَانٌ منّا ، أى منزل منا ، قال المعرى :

معانٌ من أحبّتنا مَعَانُ[1]

فالأول اسم موضع معلوم جنّس به ، وجعله منزل أحبابه . وقال بعضهم :

(١) سقط الزند ١٧٢ ، والبيت مطلع قصيدة له ، وبقيته :

* تُجِيبُ الصَّاهِلاتِ به القِيانُ *

سُمِّى معاناً لمعاينة الناس فيه بعضهم بعضاً ، أو لأنّ فيه أعيانا . أنضِى : أهزِل الركاب : الإبل ، وجَعَل للطلب إبلا مجازا ، وإنما يريد : أتعبت نفسى فرحلت إلى طلبه على الإبل . لأعاق منه : لأحصل منه على فائدة أتعلّق بها . الأنام : الخلق. مُزْنة : سحابة . الأُوام : شدّة العطش ؛ يريد أنه يتعب نفسه فى طلب الأدب ليتزيّن به بين الناس ، ويعيش به إذا احتاج إليه . فَرْط اللهَج : شدّة الحب ، يقال : قد لَهِج بالشىء إذا أكثر الحديث به لحبّه فيه ؛ وحرصه عليه. ولَهِج الفصيل بالرّضاع، إذا لجّ فيه . اقتباسه : اكتسابه . التقمّص : لبس القميص . لباسه : ثيابه، أى أطمع أن ألبس من ثيابه قميصاً . أباحث : أسائل . جلّ : عظم . قلّ : حَقر . أستسقِى الوبْل والطلّ ، أى أطلب منه السقى ، والوبل : أشدّ المطر والطلّ: أضعفه ، ويقال : الركّ أضعف من الطلّ ، ومنه قيل للدنىء : ركيك . أتعلّل : أشغل نفسى وأطمعها . والعُلالة : الشىء اليسير . وعسى ولعلّ : معناهما الرجاء والطمع ؛ يريد أنه يسائل الجليلَ فى العلم والحقير ، ومَنْ كثر علمُه وكان كالوبْل ، أو قلّ وكان كالطّل ، وإذا فقد من يؤخذ عنه العلم رجا نفسه بوجوده وأطمعها . والتعلّل : قطع الزمان بالعيش اليسير ، وقد تعلّل بشرابه ، إذا أخذ منه قليلا قليلا ؛ فمعنى «أتعلّل بعسى ولعلّ» ، أُذهب علّة وَجْدِى بالرجاء والطمع .

* * *

فَلَمَّا حَلَلْتُ حُلْوَانَ ، وَقَدْ بَلَوْتُ الإِخْوَانَ ، وَسَبَرْتُ الأَوْزَانَ ؛ وَخَبَرْتُ مَاشَانَ وَزَانَ ، أَلْفَيْتُ بِهَا أَبَا زَيدٍ السَّرُوجِىَّ يَتَقَلَّبُ فِى قَوَالِبِ الانْتِسَابِ ، وَيَخْبِطُ فِى أَسَالِيبِ الاكْتِسَابِ ؛ فَيَدَّعِى تَارَةً أَنَّهُ مِنْ آلِ سَاسَانَ ، وَيَعْتَزِى مَرَّةً إِلَى أَقْيَالِ غَسَّانَ ، وَيَبْرُزُ طوراً فِى شِعَارِ الشُّعَرَاءِ ، وَيَلْبَسُ حِيناً كِبْرَ الْكُبَرَاءِ .

* * *